قانون النصر

في العقيدة القتالية الإسلامية

الدكتور أحمد عبد الرحمن





هذا الكتاب

* لاتزال الشعوب المسلمة تقاتل فى كل الأرجاء : تقاتل الصهيونية ومعها أوربا وأمريكا فى فلسطين ، وتقاتل الصرب الصليبيين فى البوسنة والهرسك، وتقاتل الهنود الوثنيين فى جمو وكشمير وتقاتل الملاحدة الشيوعيين فى الشيشان ... إلخ .

* وفى هذه المعارك تنهزم الشعوب المسلمة كثيرا وتنتصر قليلا ، ونتيجة لذلك يشعر البعض من أبناء أمتنا باليأس من النصر ، وتساءل الجماهير فى لهفة وقلق :

- كيف كان سلفنا ينتصر كثيراً ، بل دائما ؟
- وما شروط النصر وعوامله ؟
- وما الذى يفوتنا منها فيؤدى إلى الهزيمة ؟
- وهل يوجد - أصلا - قانون ثابت يحكم ظاهرة النصر والهزيمة ؟

* وهذه الدراسة تبين معالم السبيل التى يرسمها الإسلام إلى النصر ، وتوضح العوامل التى حددها القرآن الكريم والتطبيقات النبوية لها ، مما يؤكد أن ظاهرة النصر لها قانون يحكمها أو سنة تضبطها .

وهو - بعينه - ما يُزيل القلق واللهفة فى التساؤلات السابقة وبما يضمن للمسلمين الانتصار على أعدائهم ، إذا هم التزموا بهذا القانون .

* ودار الوفاء يسرها أن تقدم هذا الكتاب إلى قرائها الكرام ، سائلة الله أن يعم به النفع وهو الهادى إلى سواء السبيل .

الناشر



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة ش.م.م

الإدارة والمطابع : المنصورة ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت : ٣٤٢٧٢١ / ٣٥٦٢٢٠ / ٣٥٦٢٣٠

المكتبة : أمام كلية الطب ت : ٣٤٧٤٢٣ ص ب : ٢٣٠ فاكس ٣٥٩٧٧٨

تطلب جميع منشوراتنا من :



دار النشر للجامعات المصرية - مكتبة الوفاء

٤١ ش شريف ت : ٣٩٣١٢٣٤ / ٣٩٣٤٦٠٦ . فاكس ٣٩٢١٩٩٧

قَانُونُ النَّصْرِ

فِي العَقِيدَةِ القِتَالِيَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٥م



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة ش.م.م

الإدارة والمطابع : المنصورة ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

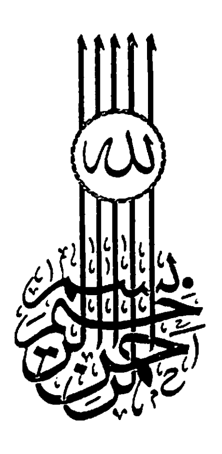
ت : ٣٤٢٧٧٢١ / ٣٥٦٢٢٠ / ٣٥٦٢٣٠

المكتبة : أمام كلية الطب ت: ٣٤٧٤٢٣ ص ب : ٢٣٠ فاكس ٣٥٩٧٧٨



فِي العَقِيدَةِ القِتَالِيَّةِ الإسلامِيَّة

الدكتور أحمد عبد الرحمن



مقدمة

فى العصور الحديثة . . . على امتداد قرنين من الزمان ، انتصرت الأمة الإسلامية قليلاً وانهزمت كثيراً : فى حروب الخلافة العثمانية ضد الدول الأوربية الاستعمارية ، وفى الجهاد الإسلامى المرير ضد الغزاة الفرنسيين بقيادة بونابرت ، ثم ضد الإنجليز، ثم الصهانية الذين غزوا فلسطين بدعم غير محدود من أوربا وأمريكا ؛ وفى حرب التحرير الجزائرية الكبرى ضد الغزو الفرنسى الاستيطانى الرهيب ، وفى ليبيا ضد الفاشست الإيطاليين ؛ وفى سوريا ولبنان ضد الاستعمار الفرنسى؛ وفى الهند وباكستان وأفغانستان وإندونسيا ؛ وفى السودان واليمن ؛ وفى أذربيجان وطاجيكستان والقرم والقوقاز ضد البلاشفة الشيوعيين.

وفى كل الأقطار الإسلامية دارت رحى المعارك لصد المعتدين الأوربيين والصهاينة وعبدة الأصنام من الهنود ، وفى تلك المعارك انهزم المسلمون كثيراً وانتصروا قليلاً . وحين قيض الله لشعب مسلم أن ينتصر وينال استقلاله السياسى ، كان المستعمر يسلم السلطة لفئة متغربة تحمل أسماء عربية إسلامية وقلوباً أوربية علمانية ، لاتقل نفوراً من الإسلام وشريعته عن المستعمرين المطرودين ! .

ولاتزال الشعوب المسلمة تقاتل فى كل الأرجاء : تقاتل

الصهونية، ومعها أوربا وأمريكا ، فى فلسطين ؛ وتقاتل الصرب الصليبيين فى البوسنة والهرسك ؛ وتقاتل الهنود الوثنيين فى جمو وكشمير ؛ وتقاتل الاستعمار الفيليبينى فى « مورو» المسلمة الأسيرة ؛ وتقاتل عملاء مجلس الكنائس العالمى وكل القوى المعادية للإسلام فى جنوب السودان ؛ وتقاتل اليونان فى قبرص ؛ وتقاتل ضد الفلسفة المادية والعلمانية فى داخل مصر وتركيا وباكستان وأندونسيا وسوريا ولبنان ودول المغرب العربى ، والدول الإسلامية فى أفريقيا ، وفى كل مكان تقريباً .

وفى هذه المعارك تنهزم الشعوب المسلمة كثيراً وتنتصر قليلاً . ونتيجة لذلك يشعر البعض من أبناء أمتنا باليأس من النصر ، وتتساءل الجماهير فى لهفة وقلق : كيف كان سلفنا ينتصر كثيراً ، بل دائماً ؟ ما شروط النصر وعوامله ؟ وما الذى يفوتنا منها فيؤدى إلى الهزيمة ؟ وهل يوجد أصلاً قانون ثابت يحكم ظاهرة النصر والهزيمة ؟

هذه هى الأسئلة التى تدور فى الرؤوس وتتردد على الألسنة ، وهى التى نحاول فى هذه الدراسة أن نجد لها جواباً .

ونحن نعتقد أنها أسئلة مهمة ، وحيوية ، ونحسب أن ملايين عديدة من المسلمين يشاطروننا هذا الاعتقاد . ونأمل من خلال هذه الدراسة أن نتبين معالم السبيل التى يرسمها الإسلام إلى النصر ، وأن نعرف العوامل التى حددها القرآن الكريم ، والتطبيقات النبوية الكريمة لها ، ومدى التزام الراشدين رضى الله عنهم بها فى حروبهم ضد المرتدين العرب أولاً ، ثم قياصرة الروم وأكاسرة الفرس بعد ذلك ؛

ثم كيف شرع المسلمون فى تناسيها وإغفالها ، ليدفعوا ثمن ذلك هزائم منكرة ، وينتهى بهم الأمر اليوم إلى اليأس والقنوط من النصر .

ولقد يشاطرنى البعض، بعد الوقوف على قانون النصر والهزيمة، الإيمان بأن بوسع الأمة المسلمة أن تنتصر على المعتدين ، إذا هى التزمت به ، كما نتعلمه من كتاب الله وسنة رسوله ، وأعمال الراشدين المنتصرين ، وجهاد العديد من القادة الصالحين فى التاريخ الإسلامى القديم والحديث .

إن الانتصارات والهزائم الحربية ظاهرة مستديمة فى الحياة البشرية، تصاحبها كأنها إفراز طبيعى لها . وهى ظاهرة خطيرة ، مؤثرة إلى أبعد الحدود ، على حياة الشعوب والدول .فالحرب تُحدثِ رجة هائلة فى المجتمع والدولة . والنصر فيها يُوَلد حياة جديدة وروحاً جديدة ترفع المنتصرين إلى عنان السماء ؛ كما أن الهزيمة تصيب أهلها بطعنات قاتلة فى كل نواحى الحياة ؛ومن هنا اجتهد الملوك والقادة والزعماء وعامة الناس لمعرفة أسباب النصر، وكلفوا بذلك كلفاً شديدا،حتى اختلط العلم عندهم بالخرافات ، وامتزجت الحقائق بالأوهام !

وقد تعلم المسلمون من كتاب الله تعالى أن ظاهرة النصر لها قانون يحكمها، أو سُنَّة تضبطها ، كسائر الظواهر الاجتماعية. وعبر ابن خلدون فى« مقدمته » عن هذا الفهم ؛ لكنه لم يعط الموضوع ما هو جدير به من البحث والتمحيص ،ولاغيره فَعَلَ للأسف ! فجاء كلامه عن هذا القانون مقتضبا ،ومشوباً بالأخطاء. ولقد كانت الغاية الابتدائية لهذه الدراسة أن نتحرى الصواب فى كلامه ، لكن المواد العلمية

أخذت تتراكم حتى تجاوزت تلك الغاية اليسيرة ؛ وتبلورت الحقائق الجزئية ، ورسمت لها غاية جديدة أهم وأكبر ألا وهى: كشف هذا القانون الخطير ، قانون النصر والهزيمة .

إن ابن خلدون يؤكد ماتعلمه من مائدة القرآن الحافلة ؛ أعنى أن الظواهر الاجتماعية تخضع لسنن الله الثابتة المطردة ؛ والنصر إحدى هذه الظواهر . ولكنه يعقب على ذلك بقوله : إنه « لا وثوق فى الحرب بالظفر ، وان حَصلت أسبابه من العدة والعدد ، وإنما الظفر فيها والغلب من قبيل البخت والاتفاق » [1] ومما لاشك فيه أن هذا الكلام يصدم القارئ ، غير أن هذه الصدمة سرعان ماتزول حين يعرف أن البخت عند ابن خلدون يعنى : « وقوع الأشياء عن الأسباب الخفية »[2] ، فالبخت بهذا المعنى ليس ضد السببية ، ولا يعنى انفلات الظاهرة من سنة الله التى لاتتحول ؛ وإنما هو يشير فقط إلى خَفَاء بعض الأسباب عن الإنسان ؛ فإذا تقدم فى الدرس والبحث ، وهو يتقدم على الدوام ، أمكن أن يعرفها ، حتى لايبقى للبخت مجال . وابن خلدون نفسه ذَكَرَ بعض تلك الأسباب الخفية . مثل : الحيل ، والخداع ، وبث الشائعات لتخذيل العدو ، وحُسن اختيار الأماكن المرتفعة للعسكر ؛ كما ذكر « الأمور السماوية » التى لاقدرة للبشر على اكتسابها ، والتى « تُلْقَى فى القلوب فيستولى الرعب عليها لأجلها » . وأشار إلى عون الله تعالى وتوفيقه ،(وإن لم يذكر الإمداد بالملائكة صراحة) والأثر البالغ للإيمان بالآخرة .

(١ ، ٢) مقدمة ابن خلدون : ص ٢٤٧ ، ط . دار الشعب . .

ويقرر فيلسوفنا الكبير أن الانتصارات الإسلامية العظيمة لم تأت بحسب قانون النصر؛ لأن الدول الناشئة فى رأيه تستولى على الدول المستقرة بالمطاولة لا بالمناجزة . ومن هنا قرر أن تلك الانتصارات : «معجزة من معجزات نبينا ﷺ ، سرّها استماتة المسلمين فى جهاد عدوهم استبصاراً بالإيمان » [1] .

وهكذا تجده يتحدث عن أسباب خفية ؛ثم يذكر بعضها ؛وهذا يعنى أنها ليست خفية !! وينفى أن تكون الانتصارات الإسلامية «قانونية » تَمتْ بحسب قانون النصر ؛ ولوأنه أدخل « الأمور السماوية» وعون الله وتوفيقه ، وسائر العوامل الدينية فى مجموعة العوامل المؤثرة فى الظاهرة ، لأدرك أن تلك الانتصارات تطبيق لسنة الله تعالى ، ونتائج حتمية لأسباب تقدمتها وأفرزتها ؛ وأن إعادة هذه الأسباب ، فى أى عصر ، أمر ممكن ، وأن نتائجها ــ إذا أعيدت ــ ستكون دون ريب الانتصارات العظيمة .

لهذا نقول: إن كلامه مشوب بالأخطاء ؛ وأنه لايجيب على التساؤلات المطروحة اليوم ؛ بل إنه أجاب إجابة سلبية عليها ؛ لأنه يعتبر انتصارات المسلمين معجزة للنبى ؛ولا نبى بعد محمد ﷺ. فهى إذن يتسحيل أن تتكرر ولسوف نرى من هذه الدراسة أن قانون النصر سنة ثابتة ؛ وأن المسلمين الذين انتصروا قد طبقوه ؛ ولذلك فقط انتصروا ؛وأنهم قد هُزموا يوم « أحد » وعلى ، رأس جيشهم النبى ﷺ ، لأنهم أخلّوا بشرط جسيم ، وعامل خطير من عوامل النصر ؛

---

(١) السابق : ص ٢٧٠ .

وأننا نستطيع أن ننتصر اليوم إذا التزمنا بهذا القانون ؛ وأننا سوف نواصل التقهقر والهزيمة إذا لم نطبقه، ونحرص عى احترام شروطه ، ونعرف ماذا يمكن أن يُعَوّض منها وماذا لايمكن أن يعوض ، إذا كان التعويض جائزاً أصلاً .

وأيَسْرُ النتائج التى نأمل أن تحققها هذه الدراسة : إزالة الغشاوة عن عقول كثيرة ، كتلك التى تظن أنه لايوجد قانون يحكم ظاهرة النصر ؛ وأننا لانستطيع توفير شروط هذا القانون إن وُجد ، ولذلك لايمكن أن ننتصر كما انتصر سلفُنا العظام ؛ وتلك التى تزعم أن انتصارات الجيوش يمكن أن تتحقق بالسلاح وحده وبمعزل عن نظام المجتمع وعقيدته ؛ وتلك التى رددها ابن خلدون نفسه والتى تزعم أن الجهاد قد بطل! [1] وإلى جانب هذا كله اضطراب كبير وخلط كثيف وأخطاء عديدة .

(١) مقدمة ابن خلدون : ص ٢٠٢ .

١ـ الإيمان بالله ورسوله : الشرط الجامع للنصر

أول العوامل وأخطر العوامل التى أنالت النصر للمسلين هو عامل الإيمان بالله ورسوله . إنه العامل الذى يجلب فى أعقابه سلسلة طويلة من العوامل المؤثرة ، الإيجابية ، المؤدية إلى النصر : كالإخلاص ، والصبر على احتمال المكاره ،والجسارة فى القتال ، والثقة ، والأمانة ، والاستماتة فى الجهاد ، كما ذكر ابن خلدون . وَوَهَنُ الإيمان ، على النقيض من ذلك ، يسبق كل هزيمة ، ويجرها فى أعقابه . وفى عصور التقهقر ، التى لاتزال ممتدة إلى يومنا هذا ، كان ضعف الإيمان ، أو بالأحرى ، إضْعَاف الإيمان عمداً وقصداً ، هو أول الأسباب وأبرز الأسباب فى الهزيمة .

والقرآن الكريم يعلمنا أن وعْد الله بالنصر هو «للمؤمنين» لا لغيرهم ؛ وأن هزيمة الكافرين سنّة ماضية فى كل عصر . ولم يقتصر الوعد بالنصر للمؤمنين على عهد النبى ﷺ ؛ والله تعالى لايخلف الميعاد ؛ ولكن الأمة المسلمة غيرت وبدلت ؛ فَوَهَنَ الإيمان وَهَزُلَ اليقين ؛ بل صُمم التعليم الحديث فى معظم الأقطار الإسلامية على توهين الإيمان ، وإضعافه ، وذلك باتباع سياسات الاجتزاء منه ، لكى يوافق العلمانية. وبقدر الوهن فى الإيمان كان نصيبنا من الهزائم. فقانون النصر ثابت لايتخلف ، وحكمه ماضٍ إلى يوم القيامة ، كقانون الجاذبية ؛ وهذا هو ما سوف يتأكد خلال هذه الدراسة .

أ ـ يقول جل شأنه: ﴿. . . **وكان حقاً علينا نَصْرُ المؤمنين**﴾ (الروم ٤٧) .

ب ـ ويقول : ﴿ **إنَّا لَنَنصر رُسلَنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد** ﴾ (غافر : ٥١) ويقول : ﴿ . . . **ولَيَنْصُرَنَ اللهُ مَن ينصرهُ إن الله لقوى عزيز الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** ﴾ (الحج: ٤٠، ٤١) .

جـ ـ ويقول : ﴿ **إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركُم من بعده** ﴾ (آل عمران : ١٦٠) (١) .

ولكن الإيمان بالله ليس العامل الأوحد للنصر. فهناك عوامل أخرى عديدة ، مؤثرة. وتَوفُّر الإيمان مع غياب العوامل الأخرى كلية، أو وجود خلل جسيم فيها لصالح العدو ، لايضمن النصر . وقد هزم المؤمنون يوم « أحد ». والنبى ﷺ على رأس جيشهم ، وأصيب النبى نفسه ؛ وقتُل من المهاجرين والأنصار عدد كبير؛ وَسَمَّى القرآن الكريم ما حدث مصيبة : ﴿ **أو لَمَّا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليْها قلتم أنَّى هذا** ﴾ (آل عمران : ١٦٥) .

ولقد تأخر نصر الله عن بعض الرسل حتى استيأسوا ! وفى هذا يقول جل شأنه : ﴿ **حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذبوا جاءهم نصـــرُنا فَنُجىَ مَن نشاء ولايُرد بأسنا عن القوم المجرمين** ﴾ (يوسف : ١١٠) . وقد قُتل بعض الأنبياء فى أثناء جهادهم فى سبيل

---

(١) وهناك آيات أخرى: تؤكد أن الإيمان بالله هو الشرط الجامع للنصر، مثلاً: الأنفال: ٤٩، ٥٠ ، والأنعام : ٣٤ .

الله؛ قال تعالى عن بنى إسرائيل : ﴿ **وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق**﴾ (آل عمران : ١١٢) .

فالخالق جل شأنه قادر على نصر المؤمنين ودحر الكافرين دون حرب أو قتال ، لكن مشيئته جل وعلا اقتضت أن تسير الظواهر الاجتماعية ، ومنها ظاهرة النصر ، على سنَّة مطردة وقانون ثابت ؛ فيقول سبحانه: ﴿ ... **ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض** ﴾ (محمد : ٤) .

لكن كلامنا هذا لايعنى بحال أن المؤمنين وغيرالمؤمنين تحت قانون النصر سواء . كلا ، فإن الإيمان كما ذكرنا سلفاً يجلب معه حزمة من العوامل الإيجابية للنصر ، وهو يضمن لمجتمع المؤمنين البراءة من سائر الآفات الاعتقادية والسلوكية التى تقود أعظم الجيوش إلى التهلكة. ثم إن الإيمان هو الشرط الأول لاستحقاق العون الإلهى .

وقد أمد الله تعالى المؤمنين يوم بدر ويوم حنين بالملائكة ؛ وهذا هو العامل الغيبى فى النصر ؛ فالإيمان يعنى الاستحقاق فى الإمداد بالملائكة. وقد يعين الله تعالى المؤمنين فى قتال ويوفقهم دون أن يدركوا هذا السبب الغيبى. وهذا هو ما حدث فى قتال الصديق رضى الله عنه ضد المرتدين العرب ، وفى فتوحاته فى الشام وفارس ، وفتوحات الفاروق رضى الله عنه من بعده ، فى اليرموك والقادسية ، ونهاوند ، وفى معارك صلاح الدين الأيوبى فى حطين (سنة ١١٨٧م)، وانتصارات الأمير عبد القادر الجزائرى (١٨٠٧ ـ ١٨٨٣)

على الفرنسيين المعتدين ؛ وفى انتصارات محمد أحمد المهدى (١٨٤٤-١٨٨٥) على الجيوش البريطانية ودخوله الخرطوم مظفراً ؛ وفى معارك عمر المختار (١٨٦٠- ١٩٣١) الباسلة ضد الجبابرة من الفاشست الإيطاليين فى ليبيا ؛ وفى انتصارات عبد الكريم الخطابى (١٨٨٢-١٩٦٣) الأسطورية ضد جحافل الجيش الإسبانى الاستعمارى فى الريف المغربى ؛ ولابد أن نذكر أنه استطاع أن يبيد منهم عشرين ألفاً سنة ١٩٢١ وأخيراً ، كلنا شَاهَد جحافل الجيش السوفيتى تخرج من أفغانستان مقهورة ذليلة عام (١٩٨٩) ؛ وكلنا يشاهد الشباب الفلسطينى المؤمن وهويواجه فى جسارة مذهلة القوات الصهيونية المدججة بالسلاح الأمريكى بكل صنوفه وأنواعه .

فلوتحقق هذا الشرط الجامع - الإيمان بالله ورسوله - بمعناه الصحيح ، وليس بالاجتزاء من الإسلام والتحريف فيه ، لَجَلَبَ معه تلك الحزمة الذهبية من العوامل الإيجابية الضامنة للنصر . فتلك هى سُنة الله الماضية : ﴿.... **ولو قاتلكم الذين كفروا لَوَلَّوا الأدبار ثم لايجدون وليّـاً ولانصيراً . سنّةَ الله التى قد خَلَتْ من قبل ولن تجد لسنّة الله تبديلاً** ﴾ (الفتح : ٢٢ ، ٢٣) .

ويصور المثنى بن حارثة ، ذلك المقاتل المظفر العظيم ، رضى الله عنه، فعل الإيمان فى القوة القتالية عند العرب، فيقول: «قد قاتَلت العربُ العجَم فى الجاهلية والإسلام ؛ فوالله لمائة من العجم فى الجَاهلية كانوا أشد علىَّ من ألف من العرب ! ولمائة اليوم من العرب أشد علَّى من ألف من العجم . إن الله أَذْهبَ مَصْدوقَتهم

وَوَهَّن كيدهم »[1] .

ومن الوقائع المذهلة التى سجلها التاريخ أن مائة من المؤمنين قتلوا ألفاً من المشركين فى معركة « البُوَيْب » ضد الفرس سنة ١٣هـ. فَقَتَلَ كل مجاهد مؤمن عشرة من المشركين فى المتوسط . وإلى جانب « أصحاب العشرة » كان هناك « أصحاب التسعة » ، وهم الذين قَتَل كل واحد منهم تسعة من المشركين [2] . مع التساوى التام فى السلاح !

وشرط الإيمان بالله ورسوله معناه : صَبْغ المجتمع المسلم كله بالصبغة الإسلامية؛ فالمجتمع المؤمن هو الذى يمكن أن يفرخ الجيش المؤمن الجدير بعون الله وتوفيقه .

وهذه هى البدهية الإسلامية القتالية الأولى والأساسية؛ وهذه هى القاعدة التى ترفضها النظم العلمانية الحاكمة فى البلاد الإسلامية. فهم يريدون نصر الله ، على الرغم من نبذهم لشريعته ورفض شطر من الإسلام رفضاً باتاً ؛ يريدون نتائج الإيمان دون التحلى به ؛ فهل ثمة حماقة أشنع من ذلك ؟ ! [3] .

---

(١) تاريخ الطبرى : ٣ / ٤٦٧ ، ٤٦٨ .

(٢) السابق : ٣ / ٤٦٨ .

(٣) الإسلام فى مواجهة التحديات المعاصرة : للمودودى ، تعريب خليل أحمد الحامدى: ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، دار القلم بالكويت،ط٣ ، سنة ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م.

٢ - فى سبيل الله وحده نقاتل (١)

ويتصل بشرط الإيمان بالله ورسوله ، ويلزم عنه ، عامل لايقل عنه أهمية للنصر ، ألا وهو :أن يقاتل المؤمنون فى سبيل الله ، وليس لأية غاية أخرى ؛ والقتال فى سبيل الله له غايات محددة تترجم عنه ؛ وقد جسدها عملياً جهاد الرسول ﷺ وجهاد الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم . وهذه الغايات هى : رد العدوان ، ومنع الفتنة والردة ، ورد البغاة ، ورفع الظلم .

وآيات القرآن الكريم تكشف عن هذه الغايات بكل وضوح :

الغاية الأولى : رد العدوان :

يقول جل شأنه : ﴿ **وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولاتعتدوا** ﴾ (البقرة : ١٩٠) .

وقد أنْفَذَ رسول الله ﷺ هذه الآية الكريمة بكل دقة وحزم ؛ ففى « بدر » جاءه المشركون يغزونه ، بعد أن تأكدوا من مرور القافلة التجارية بسلام ؛ ولم يعد لديهم سبب للحرب . فهم قد اعتدوا على المسلمين فى مكة ، وعذبوهم ، واضطروهم إلى الهجرة بدينهم ؛ ثم هم يوم « بدر » يريدون استئصالهم من المدينة أيضاً . ويوم « أحد » جاء المشركون مرة أخرى للعدوان أو « الثأر» كما زعموا،ونسوا أنهم هم الذين بدأوا العدوان والاضطهاد ، فى مكة ، ثم يوم بدر . ويوم

---

(١) انظر :الإسلام والقتال : للمؤلف ، ص ٤٣ ـ ٨١ دار الشرق الأوسط للنشر ، سنة ١٩٩٠ .

الخندق جاء المشركون مع اليهود ، وكل القبائل العربية المعادية لدين الله ، وحاصروا المدينة المنورة ،في حرب عدوانية شاملة .

ويوم فتح مكة ، كان المشركون هم الذين نقضوا العهد الذى أبرموه مع النبى ﷺ فى الحديبية ، وأعْملوا سيوفهم الغادرة فى حلفاء النبى من خزاعة . ويوم حنين ، كانت هوازن ، التى ارتدت عن الإسلام ، هى التى تجمعت وتحفزت للعدوان ، مع ثقيف، ونضر ، وجشم ، وسعد بن بكر ، وبعض بنى هلال [1] ، وقد بعث النبى صلى الله عليه وسلم « عبد الله بن أبى حدرد » ، فدخل فيهم ، وتأكد من عزمهم على العدوان ، ثم عاد وأخبر النبى ﷺ [2] . وفى تبــوك لم يقع قتال ، وإنما وقـعت معـاهدات صـلح مع « يُحَنَّة بن رؤبة » ، « وأكيدر بن عبد الملك» [3].

الغاية الثانية : منع الفتنة :

ويقول جل شأنه : ﴿ **وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله**﴾ (البقرة : ١٩٣) .

ففى بـدر وأحـد والخنـدق ، كانت فتنة المسلمين عن دينهم هدفاً مشتركاً لدى المشركـين واليهـود والمنافقـين ؛ وقد عبروا عن ذلك بإصرارهم على « استئصال » محمد وأصحابه . فيذكر ابن هشام أن زعماء اليهود فى المدينة : « خرجوا حتى قدموا على قريش مكة ،

---

(١) ابن هشام : ٢ / ٤٣٧.

(٢) السابق : ٢ / ٤٣٩ .

(٣) السابق : ٢ / ٥٢٦ .

فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ ، وقالوا : إنّا سنكون معكم عليه حتى « نستأصله » . فقالت لهم قريش : يامعشر يهود ، إنكم أهلُ الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفدينُنا خير من دينه ؟ قالوا : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه » (١) و هكذا شهد اليهود زوراً أن الوثنية خير من التوحيد!

وبصفة عامة ، كانت فتنة المؤمنين عن دينهم وردّهم إلى الشرك وإرهاب من لم يؤمن ، وتنفيره من الإسلام ، هى الهدف النهائى للاعتداءات وصنوف التعذيب التى لقيها المؤمنون فى مكة ،وللحرب العداونية التى شنتها قريش واليهود والقبائل العربية الوثنية ضد المسلمين . وإلى جانب التعذيب والاضطهاد والحرب ، لعب مدعو النبوة من أمثال مسيلمة الكذاب ، دوراً خطيرًا فى حركة الردة التى اندلعت قُبَيْل وفاة الرسول ﷺ ، واشتعلت بقوة

فى أوائل عهد الصديق رضى الله عنه ، ولم تخمد إلا بعد معارك عنيفة وباسلة خاضها المؤمنون : ﴿حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله﴾ .

والحروب الاستعمارية الحديثة التى شنتها أوربا وأمريكا ضد شعوبنا المؤمنة كانت تبتغى أول ماتبتغى فتنة المسلمين عن دينهم ، وتحويلهم إلى النصرانية أو إلى الإلحاد ؛ وكانت الفتنة فى مخططاتهم هى الشرط الضرورى لضمان استسلام الأمة المسلمة ، وتحويلها إلى مسخ شائه ، تابع للمستعمر ؛ فبذلك وحده يمكن أن يستمر نهب المواد

---

(١) السابق : ٢ / ٢١٤ .

الخام بأبخس الأثمان ، وتصريف المنتجات الصناعية بأغلى الأسعار ، وإبقاء الموانئ فى كل البلدان المسلمة تحت سيطرة المستعمر أو تحت إدارة المتغربين الذين تسلموا السلطة بعد خروج المستعمر ، لكى يحافظوا على الاستمرار فى فتنة التغريب والمادية والعلمانية ، ويتقدموا بها حتى يتم القضاء على الإسلام كنظام شامل للمجتمع ، ويصبح مجرد عقيدة شخصية وطقوساً وشعائر وأذكاراً وتسابيح ؛ وفى مرحلة متقدمة تتم الفتنة بنشر الإلحاد وتعميمه وصوغ الحياة فكراً وتشريعاً ونظماً وأخلاقاً على حسب مايقتضيه المذهب الإلحادى الذى يسود !

وتبعاً لهذا نقول : إن كل جهد يبذل لردع هذه الفتنة الحديثة ، وإعادة الهيمنة على المجتمع للإسلام ، هيمنة كاملة شاملة ، هى تطبيق للآية الكريمة : ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة** ﴾ ويجب أن ندرك هذا ، ونوقن أن قانون النصر معنا ، لأننا نقاتل فى معارك مشروعة فى سبيل الله .لكن علينا بطبيعة الحال أن نحقق العوامل الأخرى للنصر ، ولانكتفى بالإيمان بالله ورسوله وابتغاء سبيله فى كل معاركنا . وهذا هو ماسوف نحاول إيضاحه فى بقية هذه الدراسة إن شاء الله .

الغاية الثالثة : قتال البغاة :

ويقول جل ثناؤه : ﴿**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب**

المقسطين ﴾ (الحجرات : ٩) (وأيضا : الشورى :٤١ ، ٤٢)
فقتال البغاة هو قتال فى سبيل الله .

وقد قاتل الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه البغاة من الخوارج، وهو يومذاك الخليفة الشرعى للأمة . فهذا القتال ، وكل قتال للبغاة هو قتال مشروع فى سبيل الله . وقد عالج الفقه الإسلامى أحكام البغاة ، بما يتفق مع كتاب الله تعالى .

ولكن المشكلة التى واجهت المسلمين فى قتال البغاة تتمثل فى الحيرة والعجز، فى كثير من الأحيان ، عن تحديد الفئة الباغية ، وتبين الفروق بين البغى وبين « المنابذة » الشرعية - أى القيام بالسيف على أئمة الجور بُغية عزلهم ، الأمر الذى أدى إلى اعتزال الكثيرين للقتال خوفاً من الاشتراك فى القتال إلى جانب البغاة خطأ !

ويمكن القول أن هذه الآية : ﴿ **وإن طائفتان** ... ﴾ معطلة فى العصر الحديث ؛ فقد اقتتل الحكام العلمانيون مرات ومرات ، وبدلاً من أن يصلح الآخرون بين المتقاتلين،صبوا الزيت على النار ، ولم يحاول أحد أن يبين للناس أن المعارك بين العلمانيين لا تخص الأمة . وقام الإعلام المسخر للحكام المتغلّبة والإعلام المرتزق ، بقلب الحقائق رأسا على عقب،ليقف المسلمون معهم ويعطفوا عليهم ، أو يتعاطفوا معهم . حدث هذا مرات عديدة : عندما اندلعت الحرب بين مصر وليبيا ،وبين المغرب والجزائر ، وبين عمان واليمن الشيوعى ، وبين الأردن والفلسطينيين ، وبين العراق وإيران ، وبين العراق والكويت .

ومرد التعطيل لهذه الآية الكريمة هو سيادة النظم العلمانية فى

معظم الأقطار الإسلامية . وهى نظم تؤمن بأنه : « لا إسلام فى السياسة ولاسياسية فى الإسلام » . وأن المجتمع لايخضع لأحكام الشريعة أو لآيات القرآن الكريم ،وإنما للقانون الدولى الذى وضعته أوربا وأمريكا .وتطبيق هذه الآية الكريمة معناه أن الإسلام ينظم والسياسة الدولية ؛ وهذا يناقض مذاهبهم العلمانية . ولعل هذا يفسر لنا إخفاق المحاولات الحديثة الفاترة لإنشاء محكمة عدل إسلامية تكون لها ولاية القضاء فى المنازعات التى تنشب بين الحكام فى البلاد الإسلامية . ولا أعتقد أن هذه المحكمة ستنشأ إلا إذا جاءت حكومات إسلامية إلى سدة الحكم،تأخذ الإسلام بمعناه الصحيح الشامل للعقيدة والسياسة ، والعبادة والمعاملة ، والأخلاق والاقتصاد . وهذه الحكومات الإسلامية لن تجىء إلى الحكم إلا بعد جهاد ، وصبر ، ومثابرة ، وتضحيات وبذل وفداء ، فى سبيل الله .

الغاية الرابعة : رفع الظلم :

ويقول سبحانه : ﴿ **وَلَمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم** ﴾ (الشورى : ٤١ ، ٤٢) فالقتال ، والانتصارات فيه ، حق لمن ظُلم ، والإسلام يحرم الظلم تحريما باتاً مطلقاً وبلا أية استثناءات ، وعلى جميع الأصعدة الفردية والطبقية والدولية . وهو يجعل العدل أساساً للاتفاقات والمعاهدات والعلاقات الدولية ؛ وكل معاهدة تنطوى على ظلم يجب أن تنتهى . وإصرار دولة على الظلم يعطى الدولة المظلومة الحق فى قتالها ، ويكون القتال

عندئذ مشروعاً للدولة المظلومة . وهو قتال فى سبيل الله ؛ والمقاتلون المؤمنون فى مثل هذه الحرب لهم الحق فى الأمل فى عون الله وتوفيقه بحسب قانون النصر . ومشروعية القتال لرفع الظلم تجلب القوة والجسارة والثبات للجيش ، وتقربه من الفوز والنصر، إلى جانب العوامل الأخرى بطبيعة الحال .

هذه هى الغايات الكبرى التى نفهمها من العبارة القرآنية : ﴿**سبيل الله**﴾ وهى الغايات التى تجعل القتال مشروعاً ، وتجعل للمقاتلين المؤمنين الحق فى الأمل فى عون الله وتوفيقه ونصره . وكل حرب لغير هذه الغايات هى عدوان فى حكم الإسلام ، والقرآن ينهى المسلمين عن العدوان ، فى الآية نفسها التى أمرتهم بالقتال فى سبيل الله ، وبين العدوان ؛ فقال جل شأنه : ﴿ **وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولاتعتدوا** ﴾(البقرة : ١٩٠) وقال أيضا : ﴿ **ولايجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا...** ﴾ (المائدة : ٢) .

وفى هذا يقول الشيخ محمد أبو زهرة إن : « كل نصوص القرآن تمنع الاعتداء ابتداءً ، وتمنع الاعتداء فى أثناء القتال وقبل القتال ، ثم نجد نصوص القرآن كلها تتجه إلى بيان أن القتال المطلوب هو دفع قتال المشركين » [١] .

غير أن الشيخ أبا زهرة لم يصف لنا القتال الذى يعد اعتداءً ،

---

(١) العلاقات الدولية فى الإسلام : دار الفكر العربى ؛ دون تاريخ؛ص ٨٩ ، دار الفكر العربى ، دون تاريخ .

وكيف نميز بينه وبين القتال المشروع . ويجب أن نلاحظ أن القتال المشروع ، أو المطلوب ، كما رأينا ، يشمل : دفع العدوان ، والبغى، والظلم ، ومنع الفتنة ، وأنه ليس مقتصراً على: « دَفْع قتال المشركين » فقط .

فالأمة المسلمة تقاتل لدرء الفتنة ، وتقاتل لدفع العدوان ، وتقاتل ضد المظالم ؛ وعقيدتها القتالية الجامعة هى : « فى سبيل الله وحده نقاتل » .

٣ ـ نَنْتصر بالطاعة ، وننهزم بالذنوب

تُعلّمنا هزيمة المسلمين يوم « أحد » والنبى ﷺ على رأس جيشهم، أنه إذا كان الإيمان هو الشرط الجوهرى للنصر ، ومعه ابتغاء مرضاة الله والقتال فى سبيله ، فإن هناك عوامل أُخرى لايمكن أن تُعوض ، وأن غيابها أو تخلفها يباعد بين المؤمنين المقاتلين فى سبيل الله وبين النصر . ويوم « أحد » غاب عامل خطير جداً هو: «الطاعة»، فكانت الهزيمة نتيجة محتومة لغيابها .

إننا نعلم أن طاعة القيادة العسكرية مُسلّمة لايجادل فيها أحد فى سائر الجيوش ، ويوم « أحد » انتُهكتْ هذه المسلّمة من قبِل بعض الرماة ، فأدّى ذلك إلى الهزيمة . ولم يشفع لهم توفر عاملى «الإيمان بالله ، والجهاد فى سبيله »، ولم يعوضا معصيتهم للقيادة فى المعركة، ومضتْ سنّةُ النصر الإلهيّة عليهم فانهزموا .

كان رسول اللّه ﷺ قد أَمَرَ أمير الرماة أن : « أنضَح الخيل عنا بالنبل ، لايأتونا من خلفنا . إن كانتْ لنا أو علينا فاثبُتْ فى مكانك ، لانؤتينّ من قبِلك » (١) . ونشبتْ المعركة ، وأخذ المشركون ينهزمون، ورأى الرماة المسلمون ذلك ، فظنوا أن المعركة قد حُسمتْ ، فتركوا مواقعهم ، على نقيض الأمر الذى تلقوه من النبى ﷺ ، وعلى الرغم من تحذير أميرهم لهم من المعصية . وهكذا انكشف ظهر المسلمين :

---

(١) ابن هشام : ٢ / ٦٥ ، ٦٦ .

«فأصاب فيهم العدو، وكان يوم بلاء وتمحيص » [١] .

والطاعة فى قانون النصر كما نتعلمه من الإسلام أوسع نطاقاً من مجرد طاعة الجند لقادتهم ، كما هى فى الجيوش غير المسلمة . إنها تشمل طاعة الله ورسوله فى كل أمر . ويعتقد المسلمون أنهم ينتصرون بالطاعة وينهزمون بالذنوب والمعاصى ، فالعمل بكتاب الله تعالى وبسنة رسوله ﷺ ، والانتهاء عما نهى ، عامل أساسى فى قانون النصر وشرط جوهرى من شروطه . وقد عبر قادة جيوشنا المسلمة من الخلفاء الراشدين والقادة المنتصرين عن هذا المفهوم الواسع للطاعة ، بالقول والفعل جميعا .

ففى المفاوضات التى جرت بين المسلمين والفرس قبل «القادسية»كان قادة الفرس ينظرون إلى أسلحة المسلمين بعين الاحتقار! وقد صرحوا بذلك أكثر من مرة ،وقالوا إنها « كالمغازل » لاتُسمن ولا تغنى من جوع إزاء التسليح الفارسى الكبير .ورد عليهم المسلمون قائلين: « إن أداتنا الطاعة ، وقتالنا الصبر » [٢] . ولم يكن هذا القول مجرد أساليب إنشائية ، وإنما كان يعبر عن عقيدة إسلامية عسكرية راسخة .

ونحن نسارع إلى التعقيب على هذا بأن نستلفت الأنظار إلى أنه لايعنى إهمال التسليح بأى حال من الأحوال ، بل يوجب بذل أقصى الجهود لاستكماله وتطويره ؛ والتهاون فى التسليح ذنب ومعصية لله

---

(١) السابق : ٢ / ٧٨ .

(٢) تاريخ الطبرى : ٣ / ٥٢٨ .

تعالى ،والقرآن الكريم يحتم الإعداد للقوة بكل ما يسع الأمة أن تفعل: ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم** ﴾ (الأنفال : ٦٠) فلا يسبقنّ إلى ذهن أحد أن الإيمان بالله والقتال فى سبيله والطاعة الشاملة له ، تعنى إغفال التسليح أو التهاون فى إعداد القوة العسكرية بكل عناصرها . كذلك يجب أن نلاحظ أن عناصر القوة المادية لا تغنى عن الطاعة، وابتغاء وجه الله فى القتال ؛ وأى جيش مسلم تتفشى المعاصى بين صفوفه، وبين القادة على الخصوص ، يفقد حقه فى النصر ؛ فالذنوب انتهاك للطاعة ، وانتقاص من الإيمان ، وانحراف عن الغاية المشروعة للقتال، وهى الإخلاص لله تعالى وابتغاء مرضاته .

قال أبوبكر الصديق رضي الله عنه لقادة الجيش المسلم فى الشام، قبل موقعة اليرموك العظيمة ضد الروم :« ... لن يُؤتَى مثلكم من قلة - يعنى : لن يُهزم بسبب قلة العدد - وإنما يؤتى العشرة آلاف والزيادة على العشرة آلاف إذا أُتُوا من تلقاء الذنوب ، فاحترسوا من الذنوب . واجتمعوا باليرموك متساندين ، ولْيصَلَ كل رجل منكم بأصحابه (١).

وبَعْد معركة القادسية الكبرى عَبَرَ جيش المسلمين المنتصر دجلة لمطاردة فلول الفرس ، وكان سعد بن أبى وقاص القائد الظافر يتحدث فى أثناء العبور إلى سلمان الفارسى الصحابى الجليل ـ رضى الله عنهما ـ ويقول : حسبنا الله ونعم الوكيل . والله لينصرن الله وليّه،

---

(١) السابق : ٣ / ٣٩٣ .

وليظهرنّ اللهُ دينَه ، وليهزمنّ عدوّه ، إن لم يكن فى الجيش بغى أو ذنوب تغلب الحسنات . » وقد عَبَرَ الجيش دجلة سالماً لم يغرق منه مقاتل واحد ، إلا أن أحدهم أوشك أن يغرق فأسرع إليه البطل العظيم القعقاع بن عمرو، وأخذ بيده حتى عبر بسلام » (١) .

وحين دخل سعد بن أبى وقاص القصرالأبيض ــ قصر كسرى، ماذا صنع ؟

لقد : « اتخذ الإيوان مصلى ، وإن فيه لتماثيل جص ، فما حركها . فصلى صلاة الفتح ثمان ركعات لا يفصل بينهن » (٢) .

وربما يقال إن هذه العقيدة فى الطاعة ليست كثيرة على رجل من كبار الصحابة وأحد العشرة المبَشّرين بالجنة . وهذا حق . لكن الجيش المسلم كان يشاطر قائده الأعلى هذه العقيدة وكان يتحاشى الذنوب والمعاصى ، وتحلى بخصال رفيعة ، باستثناء تصرفات نادرة جدا كان مبعثها الجسارة الزائدة .

يقول شهود عيان فى وصف جيش المسلمين يوم القادسية :«والله ماندرى ماأجنّتْ قلوبهم .فأما ما رأينا فإنا لم نر قوماً قط أزهد فى دنياهم منهم ، ولا أشد لها بُغضاً .ما اعتُدّ على رجل منهم فى ذلك اليوم بواحدة من ثلاث: لابِجبنٍ ، ولابِغَدْر ، ولابِغَلول» (٣).

---

(١) السابق : ٤ / ١٢ .

(٢) السابق : ٤ / ١٥ .

(٣) تايرخ الطبرى : ٣ / ٤٩٥ .

وَغَنِم ذلك الجيش الباسل المنتصر كنوز كسرى من الجواهر والياقوت والذهب والفضة ، فما امتَدت يد إلى شيء من ذلك بغير حقها ، ودفع كله إلى القائد ليتصرف فيه طبقاً للشريعة . وفى هذا قال سعد : « والله إن الجيش لذو أمانة . ولولا ما سبق لأهل بدر لَقُلتُ - وأيْمُ الله - على فضل أهل بدر : لقد تتبعْتُ من أقوام منهم هَنات وهنات فيما أحرزوا ، ما أحسبها ولا أسمعها عن هؤلاء القوم»(١) وحين قَدموا بسيف كسرى وسلاحه على أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب فى المدينة ، قال : « إن أقواماً أدّوا هذا لذوو أمانة . » فقال على بن أبى طالب :« إنك عَفَفْتَ فعفَّت الرعية » (٢) — رضى الله عنهم جميعاً .

هذه هى التطبيقات العملية لعقيدة الطاعة بوصفها عاملاً أساسيا فى إحراز النصر . وليس هناك ما يمنع من أن نتسلح بها اليوم . فنحن نؤمن بالعقيدة نفسها ؛ ونستطيع أن ننتصر بالطاعة كسلفنا العظام . ونحن نؤمن بأن الذنوب هى التى هزمتنا فى حروبنا الحديثة ، وذنوب زعمائنا الكبار خاصة . إن العلمانيين سيقولون إن هذه « دروشة ، غير علمية » وإن الجيوش تنتصر بالتكنولوجيا وحدها . لكننا ندحض كل مزاعمهم لأننا نجمع — أو نحاول أن نجمع — بين الطاعة والتكنولوجيا ؛ ونؤمن بأن جيشاً يقوده سكير عربيد ،أو زير نساء ، أو ظالم فاجر ، أو دكتاتور مستبد ، أو حشاش ، لايمكن أن ينتصر ،

---

(١) السابق : ٤ / ١٩ .
(٢) السابق : ٤ / ٢٠ .

حتى إذا متلك الأسلحة النووية . وإن جيشاً تتفشى فيه الخنوثة ، واللواط ، والمعاصى لله تعالى ، لَهُوَ جيش للهزيمة ، مهما كان سلاحه متقدماً . وهزيمة الجيش الفرنسى أمام الجيش الألمانى فى الحرب العالمية الثانية أبلغ شاهد على صحة ما نقول ؛ وهزيمة الجيش المصرى سنة ١٩٦٧م بقيادة عبد الحكيم عامر ، أبلغ دليل على صحة عقيدتنا فى الطاعة ؛ فلم تكن هناك طاعة لله ، بل قتال ضد التدين فى التعليم والإعلام والفنون .

إن طاعة الله تعالى هى التى تتكفل بتربية الأمة المقاتلة التى تفرخ الجيش المقاتل ، والعنصر البشرى المجاهد . والأبعاد العلمية والتقنية والعسكرية تحتاج إلى ذلك الإنسان المؤمن المطيع لله ، ولقيادته العسكرية ، الحافظ لأسرارها ، المستميت فى تنفيذ تعليماتها .

ولعلنا نذكر كيف نجحت إسرائيل فى اختراق أسرار بعض الجيوش العربية عن طريق القادة والحكام والأذناب العلمانيين . وهذا هو شاوشيسكو يبيع أسرار حلف وارسو للمخابرات الأمريكية ! إنه ليس بصاحب إيمان أو عقيدة ، ولا يعرف الله ولايدرى ما الجنة ، فلم لايخون ؟ !

وفى المقابل استطاع أفراد أفذاذ من صلحاء جيشنا سنة ١٩٧٣م أن يدمروا كتائب كاملة من دبابات العدو الصهيونى وآلياته ، بغير شىء سوى الجسارة ، والثبات ،ومدافع (RBJ) وكان إيمانهم بالله ، واحتسابهم ، ورجاء إحدى الحسنيين ـ النصر أوالشهادة ـ وراء بطولاتهم الفذة .

إننا مأمورون بإنشاء الأمة الطائعة لله تعالى ، والنظام الاجتماعى الذى يقوم على إنفاذ شريعة الخالق ، وفى وسط هذا النظام لنا أن نأمل فى أن يبرز فى جيشنا رجال أفذاذ على مثال : على بن أبى طالب ، وجعفر بن عبد المطلب ، وأبى دجانة ، وسعد بن أبى وقاص وأبى عبيدة وخالد بن الوليد والقعقاع بن عمرو ،وبقية الكوكبة المضيئة فى تاريخ الجهاد الإسلامى . وهذا ما تحاربه الحكومات العلمانية بكل ما أوتيت من قوة :فى التعليم - من الحضانة إلى الجامعة ؛ وفى الإعلام : من إذاعة وصحافة وتلفزة ، وبالفنون والآداب التى صارت دعارة مستخفية ؛ وذلك لأن تلك الحكومات على يقين أن قيام المجتمع المسلم المطيع لله هو مقبرة لكل الأفكار والنظم العلمانية .

٤ ـ شورى الحرب والسياسة فى عهد النبوة والراشدين

نحن نعلم أن الله تعالى أمر النبى ﷺ بالشورى فى القرآن . قال تعالى :﴿ **فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر** ﴾(آل عمران : ١٥٩) وقد جاء هذا الأمر بالشورى ضمن سياق الآيات التى تتحدث عن الحرب والقتال . فهى إن كانت توجب الشورى بعامة ، إلا أنها نزلت فى إيجاب شورى السياسة والحرب أولاً ، وعلى وجه الخصوص .

وقد أنفذ النبى ﷺ هذه الآية الكريمة فى سياسته وحروبه ، كما التزم بها الخلفاء الراشدون والقادة الكبار من الصحابة ، رضى الله عنهم أجمعين .

ففى يوم بدر ، استشار النبى ﷺ أصحابه حين جاء نبأ سير قريش ، قبل أن يقرر منع قافلتهم ؛ يقول ابن هشام :« وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم . فاستشار الناس ، وأخبرهم عن قريش . فقام أبوبكر الصديق فقال وأحسن ، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يارسول الله، امضِ لما أراك الله فنحن معك . . » (١) . ولم يكتف النبى ﷺ بمشورة المهاجرين ، بل طلب مشورة الأنصار أيضاً ؛ يقول ابن هشام:« فكان رسول اللّه ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها

---

(١) ابن هشام : ١ / ٦١٥ .

نَصْرَه إلا مِمَّن دَهَمَه بالمدينة من عدوه ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو خارج بلادهم. فقام سعد بن معاذ ـ رضى الله عنه ـ وأجاب الرسول عليه الصلاة والسلام ، بكلمة بليغة مؤثرة ، جسورة. أنْهاها بقوله: «... فَامضِ يارسول الله ، لما أردتَ فنحن معك . فوالذى بعثك بالحق لو استعرضْتَ بنا هذا البحر فخضْتَه لَخضْناه معك ، ماتخلف منا رجل واحد ...» (١) .وهكذا اتّخذ القرار السياسى بالقتال على أساس من الشورى الحرة .

هذه هى السنة العملية لشورى الحرب والسياسة ، كما ، طبقها الرسول ﷺ يوم بدر، فهو لم يبرم قرار الحرب والمواجهة إلا بعد شورى واسعة شارك فيها المهاجرون والأنصار . وبذلك تأكد من صدق إرادتهم ، وأشركهم معه فى المسؤولية ، وَضَمِنَ حماسهم وحميتهم ، وعلمهم كيف تكون القيادة السياسية والحربية ، وكيف يكون الطريق إلى النصر . فلا استبداد بالقرار السياسى الخطير ، لأنه قرار الحياة أو الموت . والمقاتلون المسلمون الأحرار لا يجب أن يُساقُوا إلى الحرب كما تساق الأغنام إلى المجازر، على طريقة الحكام المستبدين ، وإنما يتحتم أن يشاركوا مشاركة حرة في اتخاذ قرارات السلم والحرب ، وهذا للأسف الشديد هو ما تُنُوسى فى العصر الحديث، ليستبد بمصائر الشعوب المسلمة أفراد طغاة، ويقودوهم إلى النكسات والهزائم المنكرة .

---

(١) السابق : ١ / ٦١٥ .

وفى المسائل العسكرية « الفنية » أخذ النبى ﷺ بمشورة الحباب بن منذر ، وقد كان الرسول عليه السلام قد نزل بالجيش فى مكان غير مناسب فأشار عليه الحباب قائلاً : « يارسول الله ، أَرأَيْتَ هذا المنزل ، أَمَنْزلاً أَنْزَلَهُ الله ليس لنا أن نتقدم ولانتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : « بل هوالرأى والحرب والمكيدة ». فقال : يارسول اللّه ،فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء ، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون. فقال رسول الله ﷺ لقد أشَرْتَ بالرأى»(١) .

والحباب هنا يَعْرِف أحسن من كثير من كتابنا اليوم أن الشورى ليست فيما فيه نص قطعى ؛ ولذلك يستفسر أولاً عما إذا كان مكان المعسكر قد اختير بوحى من الله أم لا ؛ ولما أُخْبِر أن اختياره كان مجرد رأى ، تقدم بمشورته ؛وقدم شرحاً لها يُظهر فائدتها ؛ فأخذ القائد الأعلى بمشورته وأنفذها . وهذا هو الفرق الرئيسى بين الشورى الإسلامية وبين الديموقراطية العلمانية التى لاتتقيد بوحى ولا كتاب منير ، بل تسعى إلى إشباع شهوات الناس ورغباتهم .

وفى يوم بدر أيضاً نجد مشورة ثالثة تكشف عن الحذر العسكرى وتقدير المسؤولية ؛ فإن سعد بن معاذ أشار على النبى ﷺ فقال : «يانبى الله ، ألا نبنى لك عريشاً (شبه الخيمة) تكون فيه ، ونُعِدّ عندك ركائبك ، ثم نَلقَى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظْهَرَنَا على عدونا

---

(١) السابق : ١/ ٦٢٠ .

كان ذلك ما أحببنا ؛ وإن كانت الأخرى جَلَسْتَ على ركائبك فَلَحقْتَ بمن وراءنا ؟ فقد تَخلفَ أقوامٌ ، يانبى الله ، مانحن بأشد لك حباً منهم. . . »[1] . فَأَثْنَى عليه النبى ودعا له بخير وأخذ بمشورته، فاحتمال الهزيمة وارد ، ولابد من الحفاظ على حياة النبى أولاً وقبل كل شيء لكى يواصل أداء رسالته العظمى ، ويقاتل معارك أخرى ، حتى يتم النصر لدين الله . فكان لابد من هذه الخطة الحكيمة لمواجهة ذلك الاحتمال .

ويوم« أحد » استشار الرسول ﷺ المسلمين فقال : « . . . فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة ، وتَدَعوهم حيث نزلوا؛ فإن أقاموا أقاموا بشر مُقَام ، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها » . وكان رسول الله ﷺ يكره الخروج . فلم يزَل الناس برسول الله ﷺ ـ الذين كان من أمرهم حب لقاء القوم (أى الخروج) ـ حتى دخل رسول الله ﷺ بيته فَلَبِسَ لامته . . . وقد ندم الناس وقالوا : استِكرهنا رسول الله ﷺ ، ولم يكن لنا ذلك » (٢) .

هذا الخبر يدل بوضوح على أن الرسول عليه الصلاة والسلام نزل على شورى المسلمين ، وهو كاره لذلك ، وغير مقتنع بها . وهذا الخبر فى حسبانى هو أقوى الأدلة على وجوب نزول الإمام على مشورة الأغلبية إذا تعارضت مع رأيه ورأى غيره أيضاً ؛فهنا فى

---

(١) السابق : ١ / ٦٢٠ .
(٢) السابق : ٢ / ٦٣ .

هذه الحالة ، كانت الأغلبية ترى الخروج للقاء العدو عند « أحد » والأقلية ـ ومعها النبى ﷺ ـ رأت أن البقاء فى المدينة أفضل ؛ وتنازل النبى عن رأيه وأنفذ شورى الأغلبية .

ولقد قيل ويقال إن الهزيمة كانت بسبب الشورى واحترام رأى الأغلبية؛ وعلى ذلك يتطوع أنصار الدكتاتورية اليوم ليفتوا للناس بأن رأى الإمام يجب أن يعلو على رأى المجلس النيابى ، وأن العكس خطأ ، بدليل الهزيمة يوم أحد ، كأنما النصر مرهون بالاستبداد !

وأحسب أن دراسة أسباب الهزيمة يوم أحد تقطع بأن عصيان الرماة هو السبب ، وليس خطة الخروج فى حَد ذاتها . والشورى إذا أدت إلى الهزيمة فى معركة فهى الضمانة الأكيدة للنصر النهائى ، وهى واجب دينى بحكم القرآن الكريم وبحكم السنن العملية لرسول اللّه ﷺ .

وإذا كانت الدكتاتورية قد حققت النصر مرة ، فى معركة ما فإنها لابد أن تفضى إلى الهزيمة الشاملة ، كما حدث لهتلر وموسولينى وكل الطغاة والمستبدين . وعلى العكس ، انهزم المسلمون فى أحد ، ولكنهم كسبوا النصر النهائى الحاسم ضد المشركين .

وتقابلنا صورة رائعة للشورى الحربية فى تاريخ الراشدين الناصع ، فعمر الفاروق ــ رضى الله عنه ــ أجرى مشورة رائعة ،

حول من يقود الجيش المسلم الذاهب لقتال المجوس فى فارس ؛ يقول الطبرى فى تاريخه :«خرج عمر حتى نزل على ماء يُدعى « صراراً » ، فَعَسْكَرَ به، ولايدرى الناس مايريد أيسير أم يقيم ! » ولما سأله الناس أخبرهم الخبر، فقال العامة : «سر ، وسر بنا معك ، فدخل معهم فى رأيهم، وكره أن يَدَعَهم حتى يُخرجهم منه فى رفق ، فقال : استعدوا وأعدوا فإنى سائر، إلا أن يجىء رأى هو أمثل من ذلك . ثم بعث إلى أهل الرأى ؛ فاجتمع إليه وجوه أصحاب النبى ﷺ ، وأعلام العرب ، فقال : أحْضرونى الرأىَ فإنى سائر، فاجتمعوا جميعاً، وأجْمع مَلَؤهمُ على أن يبعث رجلاً من أصحاب النبى ﷺ ، ويقيم (هو) ، ويرميه بالجنود . فإنْ كان الذى يشتهى من الفتح (يعنى : إذا تحقق النصر) ، فهو الذى يريد ويريدون ؛ وإلا أعاد رجلاً ، وندب جنداً آخر . وفى ذلك مايغيظ العدو ، ويرعوى(يكف) المسلمون ، ويجىء نصر الله بإنجاز موعود الله » .

هكذا أجْرى عمر الشورى ، وأقر أحقية أهل الرأى بالبتً فى هذه المسائل الحربية ، دون العامة . وعلى المسلمين أن يرضوا بما ينتهون إليه ؛ وعلى الإمام كذلك أن يرضى بمشورتهم ويحترمها . وتُذَكّرنا هذه الشورى بشورى سعد بن معاذ السابقة يوم بدر ببناء عريش النبى ﷺ ، تحسباً لكل الاحتمالات ، وقد صرح عبد الرحمن ابن عوف قائلاً لعمر : « إنه إن يُهزم جيشك ليس كهزيمتك . وإنك إن تُقتل أو تهزم فى أَنْف الأمر خشيتُ ألا يكبر المسلمون . . . «وأنف الأمر» تعنى أول المعركة .

وعندئذ استشارهم عمر مرة أخرى فقال : « فأشيروا عليّ برجل » فأشاروا عليه بسعد بن أبى وقاص ــ رضى الله عنهم جميعاً [١] .

كذلك استشار النبى ﷺ أهل الحل والعقد فى أمر الهدنة والصلح مع المشركين يوم الخندق ؛ فقد أراد عليه السلام أن يمزق حلف الشرك واليهود الذين جمعوا للمسلمين حوالى ١٠,٠٠٠ (عشرة آلاف) مقاتل وحاصروا المدينة . من أجل هذا أخَذَ عليه السلام يفاوض « غطفان » على أن تنسحب لقاء ثلث ثمار المدينة. لكنه قبل أن تقع الشهادة وعزيمة الصلح استشار السعدين رضى الله عنهما : «فذكر ذلك لهما واستشارهما فيه ، فقالا له : يارسول الله ، أَمْراً تحبه فنصنعه أم شيئاً أَمَرَكَ الله به لابد لنا من العمل به ، أم شيء تصنعه لنا ؟ قال : بل شيء أصنعه لكم . والله ما أصنع ذلك إلا أن أكسر عنكم شوكتهم إلى أمر ما . » ورفض السعدان ،وشرحا سبب الرفض ؛ وقال سعد بن معاذ فى حديث شجاع ، : « والله لاتعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم » . فقال النبى ﷺ : « فأنت وذلك » فتناول سعد بن معاذ الصحيفة ، فمحا ما فيها من الكتاب ، ثم قال : «ليجهدوا علينا » [٢] .

ونلاحظ أن الرجلين الكبيرين ــ رضى الله عنهما ــ كانا يعلمان حدود الشورى ولذلك استفسرا إن كان الله قد أمر رسوله بذلك الصلح قبل أن يتقدما برأيهما . ولما علما بأن الأمر اجتهاد بُغْيَةَ

---

(١) تاريخ الطبرى : ٢ / ٤٨١ ، ٤٨٢ .

(٢) ابن هشام : ٢ / ٢٢٣ .

المصلحة ، أعلنا رأياً جسوراً يخالف ما رآه القائد الأعلى ؛ وقبِل القائد الأعلى، ﷺ ، ذلك الرأى المخالفَ ، ولم يقل إننى كتبتُ وثيقة الصلح ، فلا تُحرجانى ؛ (مثلاً !!) ولم يستبد برأيه، على الرغم من وجاهته وحصافته ، ومسوغاته العسكرية القوية.

فشورى السياسة والحرب قاعدة مستقرة ، يوجبها كتاب الله تعالى، وسنن عديدة لرسول الله ﷺ ، فى بدر وأحد والخندق وغيرها؛ كما أن تاريخ الراشدين حافل بممارسات شورية مماثلة؛ وهذه وتلك تشكل مراجع دستورية وتشريعية لنظام سياسى وعسكرى شورى رفيع المستوى ؛ فقد كانت من عوامل النصر للإسلام والمسلمين .

وفى أخبار فتح فارس يكشف عمر الفاروق ــ رضى الله عنه ــ عن الجدوى الحربية للشورى ، فيقول لأبى عبيد بن مسعود ، أحد قادته: « اسمع من أصحاب رسول الله ﷺ ، وأشركهم فى الأمر ، ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين ، فإنها الحرب !! والحرب لايُصلحها إلا الرجل المكيث الذى يعرف الفرصة والكف» (١) .

وهذا سعد بن أبى وقاص القائد الظافر يوم القادسية ، يستشير مجلس حربه فى أمر البعثة التى قرر إرسالها إلى الفرس للتفاوض قبل نشوب القتال . وكان سعد يريد أن تكون مكونة من تسعة أفراد من كبار الرجال ووافقه معظم القادة . لكن ربعى بن عامر كان له رأى آخر ، وقد شرحه فقال : « إن الأعاجم لها آراء وآداب . ومتى نأتهم

---

(١) تاريخ الطبرى : ٢ / ٤٤٥ .

جميعاً يرواْ أنَّا قد احتفلنا بهم ، فلا تَزدهْم على رجلَ !! فَمَالَئُوه جميعاً على ذلك ، فقال : فَسَرِّحونى . فَسَرَّحَه » (١) .

« فربعى بن عامر » يعرف كيف يفكر المجوس ، وقد أدرك أن إرسال بعثة مكونة من تسعة سوف يُفهم من جانبهم على أن المسلمين يعظّمون أمرهم ؛ ولذلك اقترح أن يُرسل رجل واحد . ولما وافقوه لوجاهة رأيه ، تقدم بنفسه للقيام بتلك البعثة ، ووافق القائد العام على ذلك .

وفى مقابل هذا رَفَضَ « سعد » مشورة غير ذوى الخبرة العكسرية، وزجرهم ! فقد حاول البعض أن يضغط على سعد للشروع فى القتال ، بعد أن طالت مدة المعكسر إلى أكثر من ثلاثة أشهر ، وقالوا : « لقد ضاق بنا المكان ، فَأَقْدِم ! فَزَبَرَ مَنْ كلمه بذلك، وقال: إذا كُفيتم الرأى فلا تَكَلَّفوا ، فإنَا لن نقدم إلا على رأى ذوى الرأى . فاسْكُتوا ما سكتنا عنكم . » (٢) ولما أشار عليه أهل الرأى بالحرب حارب ، وانتصر نصراً عزيزاً مؤزراً .

ومن أخبار فتح فارس أيضاً نعلم أن القائد الجسور أبا عبيد بن مسعود الذى تلقى تعليمات مؤكدة من الفاروق عمر باحترام الشورى، قد حقق انتصارات رائعة ضد « نَرْسَى » - ابن خالة كسرى – فى « كسكر» سنة ١٣هـ ؛ ثم على « الجالنوس » فى « باقُسْياثا ». غير

---

(١) السابق : ٣ / ٥١٨ ، ٥١٩ . .

(٢) السابق : ٣ / ٥١٠

أنه ــ رضى الله عنه ــ بسبب الحمية والشجاعة الزائدة رفض الشورى العسكرية الحكيمة ، واستبد برأيه ؛ فانهزم جيشه المسلم فى موضع يقال له « المروحة » .

يقول الخبر : إن « بَهْمَنْ جازويه » قائد المجوس أرسل إلى أبى عبيد يقول : « إما أن تعبروا (الفرات) إلينا ، ونَدَعكم والعبور ، وإما أن تَدَعُونا نعبر إليكم . فقال الناس : لاتْعبر يا أبا عبيد ؛ ننهاك عن العبور . وقالوا له : قل لهم فَلْيعبروا . . فَلَجّ أبو عبيد وترك . الرأى ، وقال: لايكونون أجرأ على الموت منا ؛ بل نعبر إليهم . » وكان ذلك سبباً فى هزيمة جيشه الباسل فى تلك المعركة ،على الرغم من توفر عوامل النصر الأخرى له !

وثمة ممارسات وأقوال وتقاليد شورية سياسية وعسكرية أخرى تؤكد وجوب الشورى فى قرارات السياسة والحرب ، وإدارة القتال ، والمفاوضات ، والصلح والسلم والأمان ، غير التى أوردناها .لكننا نحسب أن ما أوردنا يكفى لبيان الحقيقة التى نسعى هنا إلى إبرازها للعيان ، ألا وهى أن الشورى فى السياسة والحرب عنصر إيجابى فعال فى قانون النصر طبقاً لشرائع القتال الإسلامية وأخلاقياتها ، فهى التى تكشف عن حقيقة إرادة الأمة . ولذلك حرص النبى ﷺ والراشدون من بعده على ممارستها ، والتحرك بعدها بتأييد من الأمة ورضاها .

٥ ـ إعداد القوى المقاتلة : التعبئة العامة والنفير الشامل

يمكن القول ، بصفة تقريبية ، إننا قد عرضنا العوامل الدينية للنصر فيما سبق وهى التى أشار إليها ابن خلدون بعبارة « الأمور السماوية » . وهذه العوامل هى التى تميز قانون النصر هى العقيدة القتالية الإسلامية منه فى العقائد الأخرى .

غَير أننا يجب أن نَحـذْرَ كل الحذر الفهم الخاطئ لهذا القانون ـ ذلك الفهم الذى يتصور أن من الممكن الاستغناء التام عن العناصر المادية وتعويضها بالعناصر الدينية ؛ فتلك خرافة شعبية لاعلاقة للإسلام بها . ويتحتم أن نحذر خداع أنفسنا فى حقيقة العوامل الدينية . ومن ذلك مثلاً حرص العثمانيين على تكليف بعض الشيوخ الأزهريين بقراءة «البخارى» ثم الدعاء للسلطان بالنصر فى حربه ضد الروس . ولم يسأل أحد: لماذا ا « البخارى » دون القرآن الكريم مثلاً؟ ، ولم يسأل أحد عن العوامل الدينية الفعالة بحق فى إحراز النصر ، كالإيمان والطاعة والاحتساب والشورى .

ولسوف نرى فيما يلى من هذه الدراسة كيف أكد الإسلام أهمية العوامل المادية ، مثل : القيادة العسكرية ، والتدريب ، والتسليح ، وعدد المقاتلين ، ووحدة الأمة ، وتحصيل المعلومات عن العدو ، وحبس أخبارنا عنه ؛ إلى جانب الروح المعنوية ، والعوامل الدينية . وليس فيما نقرر الآن اجتهاد مجتهد وإنما هو ما تأمر به آية قرآنية محكمة ، هى قول الله تعالى : ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة**

ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ (الأنفال : ٦٠) فهى تأمرنـا أمـراً واجباً بإعداد القوة الحربية ، دون تحديد ، وبأقصى ما يسع الأمة المؤمنة أن تفعل ؛ وكل تهاون أو تقصير فى إعداد القوة هو معصية لله تعالى ومنكر مُحرمّ يجب ألا يحدث . والخطاب بهذا الأمر القرآنى موجه إلى النبى ﷺ وإلى الأمة المسلمة بعامة . فهو يأمر أمة مؤمنة ، طائعة لله ، لاتقبل أن تقاتل إلا فى سبيله تعالى ، وتمارس شورى السياسة والحرب كواجب دينى؛ وبعبارة أخرى ، الأمر بإعداد القوة فى هذه الآية أساسه العوامل الدينية السابقة ؛ فهو يضيف العوامل المادية إليها ؛ وليس ثمة ما يمنع مطلقاً من فهمه على إطلاقه بحيث يشمل كل القوى المادية والمعنوية ، وكل العوامل الدينية الفاعلة فى تحقيق النصر ؛نقول بهذا ونحن نذكر أننا قد قدمنا العديد من الآيات القرآنية والسنن النبوية التى تشهد بصحة ما ذهبنا إليه عند الحديث عن كل عامل من عوامل النصر على حدة .

ولقد فسر النبى ﷺ لفظ « القوة » فقال : « ألا إن القوة الرّمْى، ألا إن القوة الرّمْى ، ألا إن القوة الرّمْى . » لكن هذا لايعنى أن القوة لاتوجد فى أى عمل قتالى آخر ؛ إنه يعنى أن الرمى هو الأهم ، والأخطر ، كما نفهم قوله عليه السلام: « الحج عرفة » على أنه يبين الواجب البالغ للوقوف بعرفة ، ولايسقط ما سواه من الواجبات . وقد كان الـرمى فى ذلك العهد هو أخطـر عناصـر القـوة القتالية ؛ لكنه لم يكن العنصر الوحيد . والنبى ﷺ نفسه قاتل بالسيوف

والحراب ، وكل ما كان متاحاً من أسباب القوة القتالية ، كالدبابات ، والمنجنيق .

وإذا ونحن فهمنا الرمى على أنه يعنى الدقة فى إصابة الهدف بصرف النظر عن الأداة، فإنه يمكن أن يستغرق معظم الأسلحة الحربية القديمة والحديثة : فالأسلحة الحديثة تتعدد ، ولكن تظل إصابة الهدف هى العامل المشّترك بينها . والعلوم التقنية الحديثة تضع دقة التصويب، بالمدافع ، والصواريخ ، والبنادق ، والدبابات وغيرها ، كهدف ثابت لها تحاول أن تقترب منه ؛ وتاريخ التطور التكنولوجى فى السلاح هو نفسه تاريخ الاقتراب من الدقة الكاملة لإصابة الأهداف ، وتدميرها . وعلى هذا يكون الرمى هو جوهر القوة كما جاء فى الحديث الشريف. ومهما زادت القوة ، مع عدم الدقة فى التصويب ، فإنها تُهْدَرُ بلا نكاية فى العدو.

وكما أمر القرآن الكريم بالإعداد التام للقوة ، بأقصى مايسع الأمة المسلمة ، أمَرَ أيضاً بالتعبئة العامة للقوى البشرية ، فقال جل ثناؤه : **﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين﴾** (التوبة : ٣٦) ثم توالت الآيات فى هذه السورة الكريمة - التوبة - تلوم الذين لايبادرون إلى النفير فى سبيل الله،ويتثاقلون إلى الأرض (الآية ٣٨) ، وتتوعد الذين لاينفرون للقتال بالعذاب والاستبدال (الآية ٣٩) ، ثم تأمر المسلمين بأن : **﴿انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ، ذلكم خير لكم إن**

كنتم تعلمون ﴾ (التوبة : ٤١) فكان النبى ﷺ يبذل أقصى الجهد فى إعداد القوة ، والتعبئة العامة، والنفير العام ، ولا يتساهل مع المتكاسلين والمتثاقلين ؛فالأمر بالنفير العام للقتال لم يستثن أحداً من الشبان أو الشيوخ (الخفاف والثقال) . وقد عُوقب المتخلفون عقاباً اجتماعيا مريراً ، ولم يعف عنهم النبى ﷺ إلا بعد أن نزل فى شأنهم قرآن . هذا بطبيعة الحال مع أخذ استطاعة كل فرد فى الاعتبار لقوله تعالى: ﴿ لا تكلف نفس إلا وسعها﴾(البقرة : ٢٣٣) .

وقد اتبع الخلفاء الراشدون أوامر القرآن الكريم هذه ، واقتدوا برسول الله ﷺ فى تطبيقها ، فيذكر الطبرى فى تاريخه: أن الفاروق ــ رضى الله عنه ــ ،فى حربه الضروس ضد المجوس : « لم يَدَعْ رئيساً ، ولا ذا شرف ، ولا ذا سطة ، ولا خطيباً ، ولا شاعراً ، إلا رماهم به . فرماهم بوجوه الناس وغُرَرِهم . » وكتب الفاروق إلى قائده الباسل المثنى بن حارثة يقول - بعد بعض التوجيهات - :«. . . ولا تَدَعُوا فى « ربيعة » ، ولا « مُضَر » ، ولا حلفائهم ، أحداً من أهل النَّجْدات ، ولا فارساً ، إلا اجْتَلَبْتُمُوهُ ، فإن جاء طائعا ، وإلا حشرتموه . احْملُوا العَربَ على الجد ، إذْ جَدَّ العجم . فَلْتَلْقَوْا جِدَّهم العجم فلتلقوا جدهم بجدِكم . » (١) . وكتب إلى عماله بمثل ذلك فقال: « لا تَدَعُوا أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة ، أو رأى ، إلا

(١) تاريخ الطبرى : ٣ / ٤٨٧ .

انتخبتموه إلى العجل . العجل » (١) .

ونلاحظ هنا حرص الفاروق على تعبئة ما يمكن أن نسميه الوسائل الإعلامية المؤثرة فى الروح المعنوية فى ذلك العهد ، ونعنى بذلك الشعراء والخطباء وأهل الرأى ، إلى جانب الأبطال أو الفرسان وأصحاب النفوذ والسلطة فى القبائل . والمفروض أن يبادر الجميع إلى الجهاد طائعين ؛ لكن التعبئة العامة والإعداد التام للقوة لاتسمح لأحد بالقعود ، ويُخْضعُ المتكاسلين والمتراخين « للحشر » أو ما يمكن أن نسميه أيضاً التجنيد الإجبارى بلغة اليوم .

وينفذ سعد بن أبى وقاص هذه التعاليم ، ويُعِدُّ كل ما استطاع من قوة، وحشر ، وتعبئة ، ونفير ، فى سبيل الله ، أيام القادسية الخالدة؛ فقد أرسل إلى كبار أهل الرأى ، وإلى الأبطال والشعراء والخطباء ، وقال لهم : « انطلقوا فقوموا فى الناس بما يحق عليكم ، ويحق عليهم ، عند مواطن البأس ، فإنكم من العرب بالمكان الذى أنتم به. وأنتم شعراء العرب وخطباؤهم وذوو رأيهم ونَجدتهم وسادتهم . فسيروا فى الناس فَذّكروهم ، وحَرّضوهم على القتال . فساروا فيهم » (٢) .

وأسفرت التعبئة المعنوية والروحية ــ ومن قبلها التربية الإسلامية ــ عن صنف فريد من المؤمنين المجاهدين الذين شكلوا

(١ ، ٢) السابق : ٣ / ٤٨٩ ، ٥٣٣ .

القوة الحربية الهائلة التى قهرت جبروت الجيش المجوسى بِعَدَدِه وعتاده وعوَّضت روحَ الفداء وحبٌّ الشهادة والنقصَ فى العدد والعدة إلى حد كبير . وقد سجل الطبرى وصفاً رائعاً للمجاهدين الأبطال فى معركة «نهاوند » التى لم تكن تقل كثيراً عن أختها الكبرى « القادسية». . . فقال « إنه ما كان أحد من المجاهدين يحب أن يرجع إلى أهله حتى يقتل أو يظفر » (١) . وذكر أن البطل « النعمان بن مُقَرن »، قائد الجيش المسلم فى تلك المعركة ، كان يدعو ويقول :« اللهم إنى أسألك أن تقر عينى اليوم بفتح يكون فيه عز الإسلام ، وذُل يُذَل به الكفار ،ثم اقبضنى إليك بعد على الشهادة .أمِّنوا يرحمكم الله!»(٢). وقد استجاب الله تعالى لدعائه ، فاستشهد – رضى الله عنه – ، ولكن بعد أن قَتَلَ الفيل الكبير الذى كان يتدرع به المجوس وكان يفعل بجند الإسلام أفاعيل مهلكة . وانتصر المسلمون نصراً فيه عزُّ الإسلام وذل الكفار حسبما جاء فى دعاء ذلك القائد الجسور الشهيد .

بهذا الإعداد الشامل للقوة ، المادية والمعنوية ، المبنى على الإيمان بالله وطاعته ، والإخلاص له فى القتال ،واحترام العهود ، واجتناب العدوان،والتزام الشورى ،وتربية الأمة تربية إسلامية حقيقية ،توفرت عوامل النصر ؛ وكانت الانتصارات الإسلامية الكبرى نتائج «قانونية» لسنّة الله فى خلقه . ولذلك نقول إن فى استطاعة الأمة المسلمة اليوم أن تنتصر على قوى العدوان الصهيونية الأوربية والأمريكية والروسية

(١ ، ٢) السابق : ٤ / ١١٩ .

والهندية إذا هى استطاعت أن توفر عوامل النصر التى ذكرناها . وليس ثمة ما يمنع من ذلك عقلاً أو نقلاً . لكن الحكومات العلمانية المستبدة فى معظم بلدان المسلمين لاتعرف الإعداد للقوة بهذا المفهوم الإسلامى . فهى تكدس الأسلحة بقدر ما تسمح لها ميزانياتها؛ ولكنها فى الوقت نفسه تحرص على إبعاد الأمة عن عوامل النصر الدينية : الإيمان بالله تعالى ، والالتزام الشامل بطاعته ، والقتال فى سبيله ؛ وبدلاً من ذلك تسلط عليه التعليم والإعلام العلمانى لتوهين إيمانه ، وتشجيعه على اقتراف الذنوب والمعاصى وإحلال الحمية العرقية أو الشعوبية أو« القبائلية » محل الإسلام . فإذا حدث هذا حلَّت عقيدة القتال فى سبيل العرب أو العروبة ، أو الأتراك ، أو الفراعنة ، أو البربر ، محل عقيدة القتال فى سبيل الله . وعندئذ يستطيع الحكام دفع الشباب الأتراك لقتال الشاب العرب ، أو الفرس ؛ بل يمكن تمزيق بلد كالجزائر - مثلاً - بإثارة النعرات العرقية المختلفة التى تفرق بين العربى والبربرى !

وفى رعاية الحكومات العلمانية تَغَولتْ وسائل الإعلام من صحافة ومذياع وتلفزة ؛ وسُخِّرت كلها لصرف الشباب عن الإسلام بمعناه الكامل الشامل الذى يضم السياسة إلى الأخلاق ، والاقتصاد إلى العبادة ، والجهاد إلى العقيدة . واستطاعت أن تفسد الملايين من أبناء الأمة وبناتها ، بحيث صارت الراقصات والغوانى والممثلون الساقطون والمنحلون وسراق المال العام من الانتهازيين هم المُثُل العليا لهم ؛

والحكومات العلمانية تقوم بكل هذا التخريب اعتقاداً منها أنها تؤخر فوز القوى الإسلامية بالسلطة ، وتطيل من عمر الحكم العلمانى ؛ وقد تدرى أو لا تدرى أنها بذلك تضمن الهزيمة فى كل المعارك ضد المعتدين الصهاينة والأوربيين والروس والأمريكيين ، والهنود ؛ فذلك هو حكم قانون النصر وسنته الإلهية الماضية .

٦ - الرياضة للنصر

في السُّنة المحمدية لاينبغى للمسلم أن ينفق من جهده أو وقته أو ماله أى شىء عبثاً ؛ وكل ذلك يجب أن يبذل فى أنشطة هادفة مفيدة للفرد نفسه ولأمته . وقد وجدنا النبى ﷺ يحرص على تحقيق هذه السياسة الحكيمة فى الرياضة ، والمسابقات واللهو البرىء . فلا بد أن يكون لكل نشاط هدف مشروع ؛ وبما أن الأمة المسلمة كانت هدفا لأعداء الله ، ومازالت ، وَجَبَ أن يتم تدريبها على فنون القتال فى معظم هذه الأنشطة ؛ وهذا لا يمنع أن تكون هناك أهداف مدنية أو اقتصادية نافعة .

ومن السنن النبوية الدالة على صحة هذا الكلام وعناية النبى ﷺ بالمسابقات الرياضية التى كانت نوعاً من التدريب العسكرى لكسب المهارات القتالية ؛ فكان عليه السلام يسابق بين الخيل . وكان يتسابق بنفسه فى بعض الألعاب الرياضية ، كالمصارعة . وقد أخرج الترمذى أنه عليه السلام قد صارع « ركُانة » فصرعه ويذكر أنه عليه السلام مَرَّ بقوم يمارسون رفع الأثقال ، بقصد معرفة الأشد من بينهم فلم ينكر عليهم ؛ ومَرَّ أيضاً على جماعة يمارسون الرَّمْىَ ، أو مايسمى «النضال» فقال لهم : « ارموا وأنا مع ابن الأدرع ». فأمسك الآخرون وقالوا: كيف وأنت مع ابن الأدرع ؟ قال : « ارموا وأنا معكم كلكم» (١) .

---

(١) أخرجه البخارى .

وقد أخذت هذه الرياضات والمسابقات وفُهمت على أنها «من آلات الحرب» ، وأن هذا هو سبب مشروعيتها ؛ وبناء على هذا قرر بعض الفقهاء أن المسابقة لاتَجوز إلا بين الخيل ، والإبل ، وفي الرَّمْى ، « لأنها من آلات الحرب المأمور بتعلمها وإحكامها والتفوق فيها » (١) .

وقال الشوكاني في « نيل الأوطار » : إن المسابقة مشروعة وليست من العبث ، بل من الرياضة المحمودة الموصلة إلى تحصيل المقاصد في الغزو ، والانتفاع بها عند الحاجة ، وهي دائرة بين الاستحباب والإباحة ، بحسب الباعث على ذلك » (٢) .

والمسابقات نوعان : مسابقات بِعِوَض ، ومسابقات بدون عِوض . ويقول ابن قدامة : « فأما المسابقة بغير عوض فتجوز مطلقاً ، من غير تقيد بشيء معين ، كالمسابقة على الأقدام - أي الجري والمشي - والسفن ، والطيور ، والبغال ، والحمير ، والفيلة ، والمزاريق ؛ وتجوز المصارعة ، ورفع الحجر - أي رفع الأثقال - ليُعرف الأشد ، وغير هذا ؛ لأن النبي ﷺ كان في سفر مع عائشة فسابقته على رجلها ، فسبقته . . . وسابق ابن الأكوع رجلاً من الأنصار بين يدي النبي ﷺ ، في يوم « ذي قرد » ، وصارع النبي ﷺ رُكانة فصرعه . وقال عليه السلام : « كل شيء يلهو به الرجل باطل إلا رميه بقوسه ، وتأديبه فرسه وملاعبته أهله ، فإنه من

---

(١) انظر : المغني لابن قدامة : ٨ / ٦٥٢ .
(٢) نيل الأوطار : ٨ / ٧٩ .

الحق » .

وقد كانت الحاجة إلى المهارات القتالية هي المسوغ لمشروعية المسابقات بعوض بين الخيل والإبل وفى الرمى . ومن المعروف اليوم أن القدرات القتالية قد اتسعت بحيث شملت القدرات العلمية والمهارات الصناعية ، وأنها تعتمد على الأنشطة الاقتصادية ، وعلى التربية والتعليم والإعلام والفنون والآداب ؛ وقد احتاجت فى الماضى إلى الشعر والخطابة، كما سبق أن رأينا . وعلى هذا لا نكاد نجد مسوغاً لتضييق نطاق المسابقات الرياضية بعوض بحيث تقتصر على سباق الخيل والإبل والرمى (طبعاً بدون أى نوع من المقامرة !) لكن الألعاب الرياضية التى تُكْسِب اللاعبين مهارات لاحاجة للإنسان بها فى حياته الحربية أو المدنية، مثل كرة القدم ، لاتجد لها مسوغاً فى الشريعة الإسلامية . ومن المؤسف أننا قد جعلنا كرة القدم هى اللعبة الشعبية الأولى التى تستهلك معظم طاقتنا وأموالنا ، وأهملنا ، الألعاب التى تكسب الإنسان القوة واللياقة والقدرة على التحمل والصبر . ومرجع ذلك إلى أننا فى الحقيقة قد « تَغَرَّبنا » كلية فى المجال الرياضى، فصرنا نَقَلة لما يمارسه الأوروبيون والأمريكيون واليابانيون . ولم نحاول إحياء تراثنا الرياضى ، الهادف ، الخالى من العبث ؛ ولافكرنا فى الجمع بين ذلك التراث وبين ما يفدُ إلينا من الخارج ؛ وتلك تبعية مخزيةٌ يجب أن نضع لها حداً بأسرع ما يمكن ؛ وعندئذ نكون قد أضفنا عاملاً فعالاً فى إنشاء جيل النصر الذى نرتجيه .

ولربما يُدهش البعض ويتساءل : أين تراثنا الرياضى هذا ؟ !

فأقول لهم :عليكم بالرجوع إلى كتب الفقه الإسلامى ،وعلى التحديد : أبواب « السبق والرمى » (١) ولسوف يُدهش - مرة أخرى ــ ولكن لسبب مناقض ! لأنه سوف يجد بين يديه شريعة رياضية كاملة، تنظم كل أنواع المسابقات ، الفردية والجماعية ، وتبين ــ مثلاً ــ كيف يختار رئيس الفريق ، بالأقدمية أو الاختيار ؛ والقرعة عند الابتداء ، وعقوبة تضييع الوقت ، وقيمة الجوائز ، ومصدرها، واستحقاقها ، وكيف يُمنع الغش والغرر والظلم فى كل مسابقة . فالفوز كسب أدبى ومادى ؛ ولابد أن يكون عن جدارة ، مثل كسب المال أو المكانة الاجتماعية أو أى شيء آخر له قيمة . وتظل الفائدة القتالية للأمة هى الهدف الأعلى من وراء الألعاب والمسابقات الرياضية ، ثم تجيء المنافع المدنية العامة بعدها ، ثم المنافع الفردية الخاصة للرياضيين .

وإننى لأتمنى أن يبادر الرياضيون والأجهزة الرياضية والنوادى إلى دراسة الرياضات والمسابقات الإسلامية ، بقصد إحيائها ، وتطويرها ، إلى جانب الألعاب المستوردة المفيدة ؛ ولعلهم يفكرون فى التقليل من الاهتمام بالرياضات التى لاتؤهل الشباب للواجبات القتالية والمدنية ؛ يقول جل شأنه : ﴿ **وفى ذلك فليتنافس المتنافسون**﴾ (المطففين :٢٦) يعنى فى الخير الموصل للجنة . والألعاب الرياضية الإسلامية والمسابقة فيها أعمال صالحة خيرة مفيدة غير عابثة ؛ فيصدق عليها هذا الأمر الإلهى .

---

(١) منها : المغنى لابن قدامة : ٨ / ٦٥١ ــ ٦٧٥ .

وهذه نبذة عن معنى الإصابة للهدف فى مسابقات الرمى الإسلامية ، أضعها بين يدى القارئ كنموذج للشريعة الرياضية الإسلامية ، لعلها تستثير الرغبة فى معرفة أصولها وآفاقها .

فالإصابة للهدف فى الرمى :

١ - قد تكون «خواصل » ، وهى الإصابة كيفما كان فى وسط الهدف أو جانبه .

٢ - وقد تكون « حوابى » وذلك حين يقع السهم عند الغرضْ ويحبو نحوه .

٣ - وقد تكون « خواصر » حين يقع السهم فى خصر الهدف .

٤ - وقد تكون « خوارق » إذا خرق السهم الهدف ووقع عنده.

٥ - وقد تكون « خواسق » إذا خرق السهم الهدف وثبت فيه.

٦ - وقد تكون « موارق » حين يمرق السهم من الهدف ويقع وراءه .

٧ ـ وقد تكون « خوازم » حين يخزم السهم جانب الهدف (١) .

ولابد للمتسابقين أن يتفقا سلفاً على معنى هذه المعانى للإصابة، ليتحدد الفائز تبعاً لذلك .

ومن البدهى أن الجيوش الإسلامية لاتكتفى بهذه الرياضات للتدريب العسكرى . وإنما هى تعتبرها إعداداً أولياً مساعداً .

---

(١) المغنى : ٨ / ٦٢٢ .

لكن تسخير الرياضة للنصر ، وإحياء تراثنا الرياضى ، وأهدافنا الرياضية ذات الصبغة الجهادية ، كل ذلك لايمكن أن يتم ، ولا أن يفكر فيه أحد أو يشرع فيه ناد ، إلا فى المجتمع الإسلامى الذى يأخذ الإسلام فى كماله وشموله ، دون اقتطاع أو اجتزاء ، أو انتقاء؛ وهذا هو ما تأباه الأنظمة العلمانية المتحكمة وتقاتله بكل شراسة . وهذا يؤكد أن كل إصلاح إسلامى يتحتم أن يبدأ بالتخلص من العلمانية .

٧ - السلاح

إن الأمر الإلهى بإعداد القوة لمواجهة أعداء الله لم يقتصر على ناحية أو عنصر أو عامل أو مجموعة عوامل فى قانون النصر دون غيرها . وكان من أكبر الأخطاء أن ظن بعض المسلمين أن العوامل الدينية تغنى عن العوامل المادية ، كالسلاح ، والعدة ، والعدد ، أو الاستحكامات ، أو جدارة القيادة . حقا إن العوامل الدينية والمعنوية تعوض نقص السلاح أو الاستحكامات إلى حد ما . والشىء نفسه يصدق على العدد أو الكم ، لكن الخلل فى أى عنصر مادى أساسى لاينبغى أن يتجاوز حدودا معينة، وإلا أفلت النصر من أيدى الجيش المسلم . ومن أجل أهمية السلاح يقول النبى ﷺ : «إن الله يدخل ثلاثة نفر الجنة بسهم واحد : صانعه يحتسب به فى صنعته الخير ، والرامى ، ومنبله » (١) . ويقول: « الخيل معقود على نواصيها الخير ــ الأجر والمغنم ــ إلى يوم القيامة» (٢) . ويقول : « من جهز غازيا فى سبيل الله فقد غزا ، ومن خلفه فى أهله بخير فقد غزا»(٣) .

وفى يوم حنين ، لما أجمع رسول الله ﷺ السير إلى « هوازن» التى كانت تتجمع وتتحفز لقتال المسلمين بعد فتح مكة ، ذكر له أن صفوان بن أمية يملك أدراعا وسلاحا ، فأرسل إليه، وهو يومئذ مشرك ، فقال : « يا أبا أمية ، أعرنا سلاحك هذا نلق فيه عدونا

---

(١) أخرجه البخارى والترمذى عن عقبة بن عامر .
(٢ ، ٣) متفق عليهما .

غدا . » فقال صفوان :أغصبا يا محمد ؟ ! قال : لابل عارية ومضمونة ، حتى نؤديها لك » قال : ليس بهذا بأس . فأعطاه مئة درع بما يكفيها من السلاح (١).

وفى هذا الخبر درس مهم للمسلمين: فهو يعلمنا أن الإيمان بالله والجهاد فى سبيله ، وقيادة النبى ﷺ نفسه ، لم تمنع القائد الأعلى عليه السلام من الحرص على السلاح ويعلمنا أن استعارة السلاح من مشرك ليس حراما ؛ وهذا يتضمن أن استعارته أو شراءه من أهل الكتاب بالأحرى ليس حراما ؛ ويعلمنا أهمية السلاح الكبرى فى قانون النصر ، بالإضافة إلى ما نستفيده من الأحاديث التى سبقته. وكل هذه السنن عبارة عن شرح وبيان نبوى لقوله تعالى : ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة** ﴾ ؛ فإذا استطعنا شراء سلاح أو استعارته أو صناعته ، وهذا أفضل بطبيعة الحال ولم نفعل كنا آثمين عاصين لله غير مستحقين للنصر ؛ وإذا كانت مصر أو باكستان تستطيع اليوم صنع القنابل الذرية ومع ذلك لاتفعل فهى آثمة عاصية لله تعالى . ويتضاعف الإثم حين نعلم أن عدونا الصهيونى يملك السلاح النووى، ويهددنا به ليل نهار ، ويصرح قادته فى صلف بأن لديهم قوة تساوى قوة الدول العربية مئة مرة ! ومن الوهم الساذج أن يظن البعض أن من الممكن نزع سلاح إسرائيل النووى بحجة إخلاء الشرق الأوسط من هذا النوع من السلاح . فإن إسرائيل ستظل تسخر من كل من يطالبها بذلك حتى تتأكد أن الدول العربية قد

---

(١) ابن هشام : ٢ / ٤٤٠ .

امتلكت السلاح نفسه ، وعندئذ فقط يمكن أن تقبل راغمة إخلاء المنطقة من أسلحة الدمار الشامل . فكل ما ينشر اليوم عن ذلك الإخلاء الموهوم هو تضليل للجماهير المسلمة ولا يستفيد منه إلا إسرائيل وحدها .

وتعلمنا السنة المطهرة أن الواجب يحتم الأخذ بكل جديد فى عالم السلاح ، والاستحكامات . فما إن أشار سلمان الفارسى ـ رضى الله عنه ـ بفكرة حفر خندق حول المدينة حتى سارع النبى ﷺ إلى تنفيذها وشارك بيده الشريفة فى عمليات الحفر . وفى غزوة الطائف ، احتمى الثقفيون بأسوار المدينة وغلقوا أبوابها . وعكسر المسلمون بالقرب من السور وحاصروا المدينة أكثر من عشرين ليلة فكان نبل الثقفيين ينالهم . ولم يستطع المسلمون اقتحام المدينة . وقد استخدم المسلمون سلاح « المنجنيق لأول مرة ؛ وكذلك استخدموا «دبابة » بدائية لحماية المجاهدين من النبل عند اقترابهم من الأسوار لاقتحامها ، وفى مقابل ذلك استخدمت ثقيف : « سكك الحديد محماة بالنار » مماّاضطر المسلمون إلى الخروج من تحت الدبابات ، وتعرضهم للنبل من جديد . وعندئذ أمر النبى ﷺ بقطع أعنابهم ، ليغيظهم ، ويحملهم على الاستسلام (١).

وقراءة تاريخ فتح فارس تكشف عن أهمية التسليح ، وخطورة الخلل فيه بما يرجح كفة العدو على الجيش المسلم ؛ ولامناص من إيجاد علاج لذلك الخلل ؛ وهذا ما واجهه ابن أبى وقاص وقادة

---

(١) ابن هشام : ٢ / ٤٨٢ ، ٤٨٣ .

جيشه ، وكذلك أبو عبيد بن مسعود فى وقعة « المروحة » مع توفر العوامل الدينية والمعنوية.

لقد كانت فيلة الجيش المجوسى سلاحا فتاكا فى مواجهة المسلمين الذين لم يملكوا سوى الجمال والخيل ؛ بل إن العرب لم يكونوا يعرفون شكل الفيل ، وإن سمعوا عنه فى قصة أصحاب الفيل الشهيرة بقيادة أبرهة. ولذلك يحكى أن خالد بن الوليد أرسل فيلا إلى المدينة المنورة ، فلما طافوا به ، قالت بعض النسوة : « أمن خلق الله ما نرى ؟! » .

قبيل معركة القادسية ، جرت اتصالات بين المسلمين والمجوس، وكان المبعوثون المسلمون يحملون معهم نبالهم وقسيهم . وكان المجوس يسخرون من تلك الأسلحة البدائية . فحين دخل أفراد البعثة على مجلس المجوس صاحوا قائلين « دوك دوك » يعنى : مغازل مغازل!« يريدون بذلك أن أسلحة المسلمين مغازل أو كالمغازل(١) وأخذ رستم سهما من كنانة المغيرة بن شعبة ، مبعوث سعد بن أبي وقاص إليه ، وقال : « لاتروا أن هذه المغازل تغنى عنكم شيئا!» وقال للوفد المسلم: « لاأرى عددا ولا عدة » . وقد ردوا عليه قائلين : . . « إن أداتنا الطاعة وقتالنا الصبر » وكانوا صادقين كل الصدق .

لكن هذه الثقة فى عون الله واليقين في نصره لم تُنسِ القيادة

---

(١) تاريخ الطبرى : ٢ / ٥١٦ .

وجود خلل خطير فى التسليح لصالح المجوس ، وضرورة إيجاد حل يقضى عليه . وقد ظل الجيش المسلم يعانى الكثير بسبب ذلك الخلل ، ويحاول تعويضه بالجسارة وحب الشهادة ، إلى أن وجد الحل . كان المجوس يملكون (٣٣) فيلاً ؛ وقد حَمَلوا بها على المسلمين من أبناء قبيلة « بجيلة » فتفرقت خيلُها وسقط منها عدد كبير من الشهداء ، حتى كادت أن تهلك ! وعندئذ أرسل سعد إلى «بنى أسد » ليدعموا « بجيلة » فنجحوا فى صد الفيلة عنهم . ثم اضطر سعد مرة أخرى إلى دعم بنى أسد وبجيلة بفرسان من بنى تميم ؛ ولولا الإقدام المنقطع النظير ، والمهارات القتالية الفائقة ، واليقين بموعود الله الأخروى ، لما أمكن وقف تقدم الفيلة أو وضع حد لأفاعيلها القاتلة !

واستعان سعد ببعض الفُرس المسلمين وسألهم عن مَقَاتل الفيلة، فقالوا : « نعم ، المَشَافِرُ والعيون ؛ لاينْتَفَعُ بها بعدها . » فأرسل سعد إلى اثنين من أشجع المقاتلين ، هما القعقاع بن عمرو وأخيه عاصم رضى الله عنهما وقال لهما : « اكفيانى الفيل الأجرب! » لأن بقية الفيلة كانت تنقاد له فى المعركة . وقد أفلح البطلان العظيمان ــ رضى الله عنهما ــ فى القيام بمهمتهما الفدائية، وذلك بأن اندفعا بقوة على ظهرى جواديهما فى اتجاه ذلك الفيل ، وصوَّبا رماحهما وسيوفهما إلى عينيه ومشافره فقضيا عليه (١) .

(١) المصدر السابق : ٣ / ٤٩٦ - ٥٣٩ .

ومرة أخرى واجه الجيش المسلم بقيادة أبى عبيد بن مسعود مشكلة الخلل الجسيم فى التسليح ؛ ففى معركة « المروحة » فى فارس كان سلاح الفيلة مدمراً ولم تستطع الخيل أن تقف فى وجهها، قال الطبرى : « فلما نظرت الخيولُ إلى الفيلة عليها النخل، والخيْل عليها التجافيف (وهى نوع من الدروع لحماية الخيْل) ، والفرسان عليهم الشعر (وهو غطاء لحمايتهم) ، رأتْ شيئاً مُنْكَراً لم تكن ترى مثله . فجعل المسلمون ، إذا حملوا عليهم، لم تتقدم خيولهم ! وإذا حملوا على المسلمين بالفيلة والجلاجل ، فَرَّقَتْ بين كراديسهم ، لاتقوم لها الخيل على نفار . وَخَزَقَهم - أى : طعنهم - الفرس بالنشاب ؛ وعَضَّ المسلمين الألم ! وجعلوا لايَصلُون إليهم!»[1] .

وقد كان الجيش المسلم يتمتع بالعوامل الدينية بطبيعة الحال . ولايشك أحد فى ذلك : من الإيمان بالله ، وطاعته جل شأنه ، والاحتساب فى سبيله ، واحترام العهود ، وغير ذلك من العوامل . وعلى الرغم من ذلك أدى الخلل الجسيم فى التسليح إلى إبطاء النصر، وأذى المؤمنين ، وكثرة الشهداء ، وتفوق العدو ؛ لأن التسليح عنصر خطير جداً . ومن العسير تعويضه بعناصر أخرى . وهذه الحقائق تعيننا على الفهم السديد لقوله تعالى : ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة** ﴾ ، وأقوال الرسول العديدة بشأن السلاح وهذا

---

(١) المصدر السابق : ٣ / ٤٥٦ .

كله يبدد الأوهام التى تتراءى للبعض حول قانون النصر ، والفهم الأحادى له ـ أعنى توهم أن النصر رهن عنصر واحد ، والفهم الجزئى له أيضاً، أعنى توهم أن النصر رهن عدد من العوامل دون غيرها ، على خلاف ما نتعلمه من كتاب ربنا وسنة رسولنا ﷺ.

فلا مفر من احترام عنصر السلاح ؛ ولامهرب من التسليم بضرورة التكافؤ فيه ، أو التكافؤ التقريبى على الأقل ؛ وأقصى مايُستساغ هو وجود خلل غير جسيم فيه ، شَريطة القدرة على تعويضه بعناصر أخرى دينية ومعنوية أو مادية ؛ ولهذا السبب تحرص أمريكا اليوم على إبقاء خلل جسيم فى السلاح العربى لصالح إسرائيل ، بحيث لا يمكن تعويضه ؛ وتحرص على التمكين للعلمانية بقتل روح الجهاد ، وإحباط فاعلية الأسباب الدينية ؛ وتخليد الهزيمة العربية إلى يوم الدين ! وفى ضوء هذه الحقائق تتضح معالم الحل الإسلامى للهزيمة الموروثة عن الحكام العلمانيين ، وهى : التمكين للإسلام الكامل الشامل فى كل نواحى حياتنا ، لإحياء العوامل الدينية للنصر؛ ثم القضاء على الخلل الجسيم فى التسليح عن طريق صنع السلاح النووى ، وعند المسلمين من المال ، والعلم ، مايمكنهم من صنعه ؛ غير أن ضعف حكامهم وتفرق أهوائهم ، وعزلتهم عن شعوبهم تضعهم تحت سطوة أمريكا والغرب ؛ وأمريكا تسهر على إبقاء الهزيمة العربية واستدامة التبعية الكاملة لها . وصفوة القول إذن

هى إننا يجب أن نبدأ بالجهاد ضد العلمانية ، حتى يتم إحلال الإسلام محلها فى كل نواحى الحياة ؛ وعندئذ يمكننا أن نأمل فى النصر على إسرائيل وعلى الهيمنة الأمريكية والأوربية : ﴿ والله غالب على أمره ﴾ .

٨ - القيادة العسكرية ، والقيادة السياسية

يشهد التاريخ العسكرى للعالم بأن جدارة القيادة العسكرية ، ومن فوقها القيادة السياسية ، عنصر مهم جداً فى تحقيق النصر . وقد خلد التاريخ أسماء عديدة لقادة عظام حققوا الانتصارات الكبرى لأممهم . وفى تاريخنا الإسلامى الطويل أسماء لامعة لقادة مرموقين،أعظمهم جميعاً القائد الأعظم محمد بن عبد الله ﷺ .

وقد يكون الجيش مفتقراً إلى العدة ، أو العدد ، أو المؤن ، ولكن عبقرية القيادة السياسية والعسكرية تعوض ذلك ، وتحقق له النصر ؛ ولقد يقع العكس ، فيكون القائد الأحمق ، المستبد ، المستهتر ، سبباً أساسياً فى إلحاق الهزيمة بجيشه ، كما حدث فى تاريخنا المصرى القريب على أيدى ناصر وعامر .

وصدق رسول الله ﷺ حين قال إن :« إن شر الرعاء الحطمة»[١]. وهو الراعى الذى يزج برعيته فى المآزق والمشكلات ، فيهلكها .

وقبل أن ندخل فى الموضوع يجب أن نميز بين القيادة المقاتلة ، أو العسكرية ، فى ساحة الحرب ، وبين القيادة السياسية للأمة ؛ فهذه الأخيرة لها الدور الأخطر فى تقرير مصائر الأمم فى السلم

---

(١) أخرجه مسلم وأحمد .

والحرب ، وبوسعنا أن نقول إنها هى المسؤولية عن توفير عوامل النصر السابقة كلها ، بما فيها القيادة العسكرية ؛ فهى التى تلعب الدور الحاسم فى إضعاف العومل الدينية أو تفوقها : من إيمان بالله، واحتساب فى سبيله ، والتزام طاعته ، واحترام الشورى فى اتخاذ قرار الحرب أو السلم ، والتعبئة العامة ، والتسليح ، واختيار القيادات العسكرية، وحشد الشعوب المسلمة وتوحيدهم ، أو تفريقهم بدعاوى شعوبية أو عرقية أو مذهبية ! وفى النظم الشمولية غير الشورية التى سادت أقطار العالم الإسلامى فى العصر الحديث تضاعف دور القيادة السياسية ، لأن الشعوب حُكمت بالحديد والنار، وأُخرست ، وعُزلت ، لكى ينفرد قائد الثورة أو الزعيم الأوحد بالقرار فى كل نواحى الحياة السياسية والاقتصادية والتربوية والعسكرية .وعلى سبيل المثال ، اتخذ عبد الناصر قرارات الحرب فى اليمن وسوريا وفلسطين ؛ وكذلك قرارات الانسحاب أو الاستسلام فى كل حرب أشعلها ، على نحو مباغت للشعب المصرى؛ وكذلك اتخذ السادات قرار السفر إلى إسرائيل ، وقرار الاستسلام فى كامب ديفيد وحده بغتة ، وذلك على الرغم من معارضة الوزراء والمستشارين . وفى مثل هذه الأوضاع يتضاءل دور القائد المقاتل ، ويُظلم ظلماً فادحا ؛ فهو يؤمر بالقتال وليس فى يده من عوامل النصر شىء يذكر . العوامل الدينية والمعنوية غائبة ، بل مغيبة عمداً ومحاربة علناً ؛ والعوامل المادية مختلة إلى أبعد الحدود؛

وهو إذا حقق انتصاراً عُزِل ، خشية ارتفاع ذكره بين الناس، بحيث ينافس الزعيم الأوحد ؛ وربما يتم اغتياله فى حادث مدبر ؛ أو تلصق به الاتهامات الزائفة لتلويث سمعته ؛ وأجهزة الإعلام الجهنمية جاهزة تحت يدى الزعيم ومسخرة لأغراضه الشخصية ؛ فى حين أن المتهم لايملك شيئاً أَلبَتَّة .

وقد وقعت هذه الجرائم البشعة مراراً ، وراح ضيحتها قادة عسكريون كبار فى تاريخ العرب الحديث والمعاصر .

وعلى هذا لابد أن تقع مسؤولية الهزائم الحديثة على الزعماء السياسيين ،الذين اغتصبوا الحكم عنوة ، واستبدوا بكل شىء بما فى ذلك قرارات الحرب والسلام ، وفلسفة المجتمع والحكم ، والعقيدة القتالية ، وكل عوامل النصر (أو الهزيمة إن شئت الدقة) ؛ ولايبقى للقائد العسكرى إلا مساحة محدودة جداً لممارسة قدراته القيادية. وعلى قدر هذه المساحة يكون دوره فى النصر (أو الهزيمة!)،وتكون مسؤوليته . وهذه الحقيقة هى التى تفسر عدم ظهور أية أسماء لقيادات ميدانية مرموقة فى معاركنا الحربية الحديثة ؛ فالاسم الوحيد المسيطر فى الإعلام هو اسم الزعيم وحده ! إنه القائد الوحيد والبطل الوحيد ، على الرغم من كل الهزائم التى يجلبها على شعبه البائس ! .

ونعود إلى مصادرنا الإسلامية لنقدم الأمثلة للقيادة الحكيمة القادرة المنتصرة . ففى غزوة الخندق واجه المسلمون مأزقاً رهيباً بسبب الخلل

الجسيم فى التسليح ، والعدد ، والمؤن . فكيف استطاع النبى القائد ﷺ أن يعوض ذلك الخلل بحكمته القيادية ؟ .

كان الجيش النبوى المسلم مستكملاً كل العوامل الدينية والمعنوية؛ وعلى الرغم من ذلك اتخذ النبى القائد ﷺ خطوة جبارة بحفر الخندق ؛ وكان عَرْضهُ ستة أذرع ؛ وعمقه كذلك تقريباً . وبهذه المواصفات وقفت خيل المشركين التى بلغتْ حوالى ستمائة فرس ، مشلولة ! واضطر المشركون إلى الانتظار لإيجاد حل ، على غير عادة العرب فى الحروب . وأدَّى ذلك إلى ظهور مشكلات عديدة ، كالتموين ، وتعدد وجهات النظر، والاختلاقات فى صفوف حلف الشرك . وفى هذه الأثناء كان النبى ﷺ يفكر فى طريقة لتفتيت ذلك التحالف العداونى بين اليهود والمشركين ، وقبائل غطفان، وقد مَرَّ بنا ذلك فى النصوص التى أوردناها بخصوص الشورى الحربية . وإذا كان الصلح لم يتم مع غطفان لرفض «السعدين » لشروطه ، فإن أنباء الاتصالات لابد أن تكون قد بلغتْ مسامع اليهود ، وكذلك أبى سفيان قائد المشركين يومئذ . وهذا فى حد ذاته كسب كبير للجيش المسلم ، لأنه يكشف عن خيانة غطفان لطرفى الحلف الآخرين، ويشككهما فى صدق وفائها لهما ، وبذلك يحقق هدف القيادة الإسلامية .

ثم قيَّض الله تعالى نُعيم بن مسعود ـ الذى كان قد وَفَد إلى المدينة مع غطفان للقتال ضد المسلمين ـ وألهمه السداد ،فأسلم وهذا هو مانسميه توفيق الله تعالى ، ونَعُدُّه من عناصر النصر التى يجلبها

الإيمان . وكما نعرف من قصة نُعيم ، حثه النبى ﷺ أن يقوم بدور «التخذيل عن المسلمين» ؛ وقد نجح فى ذلك بأن أثار شكوك كل الأطراف المشركة بعضها في بعض . وطلب اليهود من قريش وغطفان رهائن ، حسب مشورة نُعيم ، ليتأكدوا من حقيقة إصرارهم على الحرب . وأبتْ قريش وغطفان ؛ وأبت يهود أن تتنازل عن الرهائن . ودب الخلاف بينهم[1] .

وفوق هذا جاء العون الإلهى فى هيئة عاصفة شديدة حطمت خيام المعتدين فقرروا الرحيل خائبين ، دون قتال .

وأحسب أن دور القيادة النبوية الحكيمة فى هذه الغزوة كان بارزاً جداً ؛ وجاء المدد الإلهى ، وهو سبب دينى إيمانى ، ليحسم الموقف. وبذلك تم تعويض النقص الهائل فى العتاد والعدد والمؤن، لدى الجيش المسلم المحاصر.

لقد كان المشركون واليهود الذين حاصروا المدينة حوالى عشرة آلاف؛وهو عدد كبير جداً . والمسلمون حوالى ثلاثة آلاف [2] ؛ وفى هذا يقول القرآن الكريم : ﴿ **يآأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنوداً لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيرا . إذْ جاءوكم من فوقكم ومن أَسْفَلَ منكم وإذْ زاغت الأبصار وبَلَغَت القلوبُ الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلىَ المؤمنون وزلزلواَ زلزالاً شديداً** ﴾ (الأحزاب: ٩ـ١١)ويقول فى

(١) ابن هشام : ٢ / ٢٢٩ .
(٢) السابق : ٢ / ٢٢٠ .

السورة نفسها : ﴿ **وَرَدَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وكفى اللهُ المؤمنين القتال، وكان الله قوياً عزيزاً** ﴾(الآية : ٢٥) فهو سبحانه الذى رد الكفار ، وهو الذى كفى المؤمنين القتال .

فهذا موقف رهيب ، تطير له القلوب ؛ وقد زُلزل المؤمنون زلزالاً شديداً كما جاء فى الوصف القرآنى ؛ ولقد ضُرب الحصار حول المدينة المنورة ، وكانت تعانى فى ذلك العام من نقص كبير فى المؤن . لكن الأسباب الدينية التى جلبت عون الله تعالى ، وجنوده التى لايراها البشر ، والريح العاصفة ، والأسباب المادية : من حفر الخندق ، واحتمال الجوع ، والصبر فى الرباط ، وتفتيت حلف العدو ، وبث الشكوك بين عناصره، كل ذلك كان من عوامل النصر التى جعلت ذلك الجيش العرمرم ، الذى لم تر الجزيرة العربية له مثيلاً قبل دلك اليوم ، يرتد خائباً ، دون أن ينال خيراً . وكان دور القيادة السياسية والعسكرية فعالاً إلى أبعد الحدود . والشىء نفسه يجب أن يقال فى دور القيادة يوم حنين . فبعون الله وتأييده استطاعت أن تحول الهزيمة إلى نصر كبير .

وهذا أبو بكرالصديق ــ خليفة الرسول ــ يواجه الردة التى كانت أشبه ما تكون بالانهيار الشامل ! وكان الموقف الصارم فى مواجهتها ، هوأعظم ما ميز القيادة السياسية والعسكرية : ﴿**حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله** ، ﴾ وقد وصف « ضرار بن الأزْور»، موقف الصديق القائد الغاضب لدين الله تعالى فقال:« مارأيتُ أحداً ـ

ليس رسول الله ﷺ ـ أملأ بحرب شعواء من أبى بكر » [١] .

وكان المرتدون لايكتفون بالردة ، وإنما يقتلون المسلمين الثابتين على الإسلام . وكان لابد لهم من عقوبة رادعة ، وبلا رحمة . فكتب أبو بكر القائد الذى لم يهتز إلى خالد بن الوليد يقول : « . . . لا تظفرنَّ بأحد قَتَلَ المسلمين إلا قتلتَه ونكَّلتَ به»[٢] . فلم تكن دماء المسلمين رخيصة كما هى اليوم ! .

وفى النظام الإسلامى معايير خاصة متميزة لاختيار القادة أهمها : الجدارة بمعناها الشامل .

يقول ابن إسحاق : « بعث رسول الله ﷺ أسامة بن زيد بن حارثة إلى الشام . . . فتجهز الناس . وأَوْعَبَ مع أسامة المهاجرون والأنصار الأولون » [٣] . وتكلم الناس فى الموضوع معترضين أو ناقدين ، لصغر سنه ، ومقام المقاتلين الكبار فى جيشه . وسمع النبى ﷺ بهذه الأقوال ، فقال : « إنه لَخَليقٌ لها . وإنْ قُلْتم فيه لقد قُلتُم فى أبيه من قبل وإن كان لخليقاً لها » [٤] .

هنا معيار الاختيار ليس « السن » أو« الأقدمية » وإنما الجدارة ــ الجدارة بمعناها الكامل فى العقيدة القتالية الإسلامية ، أعنى التى تشمل الصفات الدينية والمهارات والقدرات القيادية والقتالية . والصفات الدينية هى : الإيمان بالله ورسوله ، والاحتساب فى القتال

---

(١) تاريخ الطبرى : ٣ / ٢٥٨

(٢) السابق : ٢ / ٢٦٣ .

(٣) ابن إسحاق : ٢/ ٦٤٢ .

(٤) تاريخ الطبرى : ٣ / ٨٤ .

فى سبيله ، والطاعة له ، والتزام الشورى الحربية . والتفاضل يكون فى هذه الصفات ، إلى جانب القدرات القيادية والمهارات العسكرية . ويقول الإمام الشافعى فى هذا : « لاينبغى أن يولى الإمامُ الغزْوَ إلا ثقة فى دينه، شجاعاً فى بدنه ، حسن الأناة ، عاقلاً للحرب بصيراً بها، غير عجل ولانزق »(١) .

وفى اختيار الفاروق ــ رضى الله عنه ــ لأبى عبيد بن مسعود لقيادة الجيش الذاهب إلى فارس يظهر معيار آخر ، ألا وهو : المسارعة إلى الجهاد ، أو السبق إليه ؛ وهذا طبعاً لايعنى تعطيل المعايير الأخرى .

يقول الطبرى : « كان وجه فارس - أى جهة فارس - من أكره الوجوه إليهم - أى إلى المسلمين - وأثقلها عليهم لشدة سلطانهم وشوكتهم وعزهم وقهرهم الأمم . قالوا : فَلَمَّا كان اليوم الرابع - من ولاية الفاروق عمر - عاد عمر فندب الناس إلى العراق ؛ فكان أول منتدب أبو عبيد بن مسعود ، وسعد بن عبيد الأنصارى . فَأَمَّر عمر أبا عبيد ، على الجيش ، ولم يؤمِّر كبار الصحابة ! فقيل له : استعمل عليهم من أصحاب النبى ﷺ . فقال : لاها الله ذا (٢) يا أصحاب النبى ! لاأَنْدُبكم فَتنكلون ، وينتدب غيركم فَأُؤَمّركم عليهم. إنكم إنما فُضّلْتم بتسرعكم إلى مثلها ، فإن نكلتم فضلوكم ؛ بل أُؤَمِّر عليكم أوّلكم انتداباً » (٣) .

---

(١) الأم : ٤ / ٩٢ ، ط . الشعب . (٢) يعنى : لا والله إذاً ، أو : لا والله حينئذ .

(٣) تاريخ الطبرى : ٣ / ٤٤٤ ، ٤٤٨

وقد كان الصدِّيق ــ رضى الله عنه ــ يعرف قيمة القيادة حق المعرفة، ويقدرها قدرها . فمن المأثور عنه ثقته فى إمكانات خالد بن الوليد . فلما اندلعت الحرب بين المسلمين والروم . قال الصديق : «والله لأنسينَّ الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد . » وقد قام خالد بمغامرة جسورة ، خطرة ، حين عبر الصحراء من العراق إلى الشام ، فى رحلة استغرقت خمس ليال ، بلا ماء ، ومع احتمالات الضلال والضياع فى الصحراء الشاسعة ، لكى ينجح فى مباغتة الروم من وراء جموعهم ، ويُحْدِث بينهم اضطراباً عظيماً ، ويَقْصم ظهورهم ، ويحقق أمل الصديق .

ولعل ثقة الصديق فى جدارة خالد هى التى جعلته يتمسك به على الرغم من إلحاح عمربن الخطاب لعزله بسبب بعض الذنوب التى وقع فيها خالد. قال عمر لأبى بكر : « إن فى سيف خالد رهقاً. فإن لم يكن هذا حقاً ـ يعنى قتله لمالك بن نويرة ـ حق عليه أن تَقيدَه » . يريد بذلك أن يُجرى تحقيق فى القضية ؛ فإن وُجد أن خالداً قد قَتَل مالكاً ظلماً ، فعليه القَود، أى الدية . وقد أجرى الصديق التحقيق ، ووجد أعذاراً لخالد ، ودفع دية مالك بن نويرة؛ وقال لعمر : « هيه ياعمر ! تَأَوَّلَ فَأَخْطَأَ . فارفع لسانك عن خالد . » وقال أيضاً فى شأن تقديره لقيادة خالد العبقرية : « لم أكن لأشيم ـ يعنى أغمد ـ سيفاً سلَّه الله على المشركين»(١) .

وحين تقلد عمر الخلافة كان عزل خالد من أول قراراته !

---

(١) السابق : ٣ / ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

وفى اختلاف الشيخين حول قيادة خالد نتبين قيمتين من عوامل النصر هما : جدارة القيادة ، وطاعة الله ؛ هاتان القيمتان تعارضتا فى موقف خالد ، فمما لاشك فيه أنه اقترف ذنباً هو القتل الخطأ ، بدليل دفع أبى بكر دية ابن نويرة . والجيش المسلم يُهزم بالذنوب . فأبوبكر رجح قيمة الجدارة الحربية ؛ فى حين أن عمر رجح قيمة الطاعة . فكان لكل اجتهاده فى المسألة ــ رضى الله عنهما .

وفى اختيار الفاروق لقائد الجيش فى موقعة « نهاوند » الكبرى سنة ١٩ هـ ، التى لم تكن تقل كثيراً عن القادسية ، تأكد معيار الاختيار المبنى على إرادة الجهاد أو السبق إليه ، والجدارة بمعناها الإسلامى الشامل .

يقول الطبرى : « كان عَـمِلَ لعـمر ـ على ماسقَى الفرات ودجلة ـ النعمان وسويد ابنا مقرِّن ؛ فاستعفيا ، وقالا : اعفنا من عملٍ يتغول (أى يتلون) ويتزين لنا بزينة المومسة ! فأعفاهما » ؛ وبعد فترة : دخل عمر المسجد ، والنعمان بن مقرّن يصلى ، فقعد إلى جنبه ، فلما قضى صلاته قال : إنى أريد أن أستعملك . قال (النعمان) : أمَّا جابيًا فلا ؛ ولكن غازيا . قال (عمر) : فَأنت غاز[1] . هذا هو صنف الرجال الذين قادوا الجيوش المسلمة إلى النصر . وهذه هى المعايير الإسلامية لاختيار القادة العسكريين كما طبقها الفاروق ــ رضى الله عنه ــ وهى فى عبارة مقتضبة : الجدارة

---

(١) تاريخ الطبرى : ٤ / ١٣٩ ، ١٤٣ .

الشاملة للصفات الدينية والقدرات القيادية والقتالية . فَعُمر لم يَخْتَرْ النعمان لمجرد ورعه أو صلاته فى المسجد ـ كما تصادف أن سمعتُ من خطيب مبتدئ ـ وإنما لأنه كان جديراً بالقيادة بالمعنى الشامل للجدارة ولست أشك فى أن هذا المعيار يجب أن يطبق على جيوشنا اليوم، وأنه قادر على إفراز أعظم القيادات القتالية . ومرة أخرى سنجد أن النظم العسكرية العلمانية السائدة ترفض هذا المعيار ؛ وتصر على معيار آخر ، وعقيدة قتالية أخرى ، وتنكر أن تكون العوامل الدينية فاعلة فى ظاهرة النصر أصلاً ؛ وتبعاً لذلك تكون ذات قيمة كبرى أوصغرى فى تقويم القيادات وانتخابها وترقيتها . وأبعد من هذا فإن كثيراً من جيوش العرب والمسلمين اليوم تعتبر التدين نقيصة، وتطرد من يتصف بها من صفوف الجيش! .

ومن البدهى أن معايير اختيار القادة العسكريين هدفها التمكين للجيش من تحقيق النصر . لكن العقيدة القتالية للإسلام لها آداب وأخلاقيات لاتسمح بتحقيق النصر بأى ثمن . فحياة الإنسان المجاهد من أثمن ماخلق الله ، ويتحتم الحفاظ عليها وإن أدى ذلك إلى الإبطاء فى تحقيق النصر ، أو عدم تحقيقه . وهذه الأخلاقيات تناقض التعليمات العلمانية وتطبيقاتها الراهنة التى تريد النصر بأى ثمن ، وغالباً ما تدفع الثمن أنهاراً من الدماء ، دون أن تحقق النصر ! .

وهذه الأخلاقيات لها أصولها القرآنية والحديثية . فهناك عشرات الآيات التى تدين القتل والجرح وتحيط الحياة الآدمية ، بسياج منيع من التشريعات والأخلاقيات ؛ من ذلك ـ مثلاً ـ قول الله تعالى :

﴿... مَنْ قَتَلَ نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً﴾ (المائدة : ٣٢) وقد مَرَّ بنا قول النبى ﷺ « إن شر الرّعاء الحطمة » (١) . وقد ظل عمر ـ رضى الله عنه ـ يرفض الغزو عن طريق البحر خوفاً على حياة المسلمين المجاهدين ، بعد أن سمع عمرو ابن العاص يصف المسافرين فى البحر بأنهم : « دود على عود » ! وتَرْجَمَتْ تعليمات الفاروق إلى قادته عن هذه الأخلاقيات القتالية ؛ فها هو يكتب إلى أبى عبيدة بن الجراح قائد جيشه فى بلاد الشام يقول : « . . . لا تقدِّم المسلمين إلى هلكة رجاءَ غنيمة ، ولا تنزلهم منزلاً قبل أن تستريده لهم ، وتَعْلَمَ مَأْتاه . ولاتبعث سرية إلا فى كنْف من الناس . وإياك وإلقاء المسلمين فى التهلكة » (٢) . وكتب إلَى النعمان بن مقرِّن يقول : « . . . إذا أتاك كتابى هذا فَسْر بأمرالله، وبعون الله ، وبنصر الله ، بمن معك من المسلمين ، ولا توطئهم وَعْراً فتؤذيهم ، ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم . ولا تُدْخِلنَّهم غَيْضة . فَإن رجلاً من المسلمين أحب إلىّ من مائة ألف دينار . والسلام عليك » (٣) .

فالنصر مطلوب . لكن ليس بأى ثمن فإن حياة الجندى المسلم ثروة ثمينة . ويجب ألا تُبذل إلا للضرورة ، وفى حدود محدودة . والتزام القيادة بهذه الأخلاقيات له أثره على الروح المعنوية للجند ، والعكس صحيح أيضاً . وقد رأينا بعض قادة الجيوش العربية الحديثة يسوقون الألوف من الشباب إلى الهلاك دون أدنى احتياط أو إحساس

---

(١) أخرجه مسلم وأحمد .

(٢) تاريخ الطبرى : ٣ / ٤٣٤ .

(٣) السابق : ٤ / ١١٥ .

بقيمة الجندى . ولم يدر أولئك القادة أنهم يضمنون الهزيمة لجيوشهم باستهتارهم وتهورهم وتفريطهم فى حياة الآلاف من جنودهم . وعلى الطرف الآخر ، الصهيونى والإنجليزى والأمريكى والفرنسى ، وَجَدناْ أخلاقيات الإسلام هذه مطبقة بدقة ؛ ووجدنا عدونا يبذل أقصى الجهود لتقليل خسائره البشرية ، واستعادة جثث الذين هلكوا من جنوده . وعزاؤنا الوحيد أن أولئك القادة ليسوا على العقيدة القتالية الإسلامية ، لكى يُحسب تصرفهم على الإسلام والمسلمين ؛ بل هم علمانيون متخلفون ، لا يأخذون من النظم العلمانيه إلا جوانبها السلبية !

ومن معايير القيادة فى الإسلام استعداد القائد لمشاطرة جنده حياتهم بكل ما فيها من مشاق وبأساء وضراء . فهو جندى أولاً ، وقائد ثانيا . والسنة النبوية العملية تشرح ذلك وتجسده . فقد كان عليه الصلاة والسلام يأكل مما يأكل المجاهدون ، ويعمل كما يعملون. وقد اشترك فى معظم الوقائع ، والكبرى منها بخاصة ، مثل : بدر وأحد والخندق ، وفتح مكة وحنين والطائف . وكان يعمل فى حفر الخندق بيده الشريفة ولم يتميز بشىء فى طعامه أو شرابه أو مركبه أو ملبسه . وكان هو الأسوة الحسنة للمجاهدين ، كما وصفه القرآن الكريم ضمن الآيات التى نزلت فى غزوة الخندق (سورة الأحزاب). ويعرف العسكريون الأثر العميق لهذه المساواة الرائعة بين القائد والجند فى رفع الروح المعنوية ، وتوثيق الصلة بين القيادة والجيش ، وتحقيق الثقة بينهما . وذلك كله من عوامل النصر الأكيدة، كما أن غيابها له آثار مخربة إلى حد بعيد .

وفى تطبيقات الراشدين وقادتهم أروع الأمثلة لهذه المساواة المدهشة ، ففى عام الرمادة كان الفاروق أشد الناس عناءً ، من الجوع والفقر . وقد قال قولته الخالدة : « كيف يعنينى شأن الرعية إذا لم يَمْسَسْنى ما مَسَّهم ؟ . [1] وحين قدم المجوس المهزومون الأطعمة الفاخرة إلى أبى عبيدة بن مسعود ، سألهم : « أأكرمتم » الجند وَقَرَيْتموهم مثله؟ قالوا لم يتيسر . . . فقال أبوعبيدة ، فلا حاجة لنا فيما لا يسع الجند . فَرَدَّه» [2] .

هذه الأخلاقيات معدومة عندنا اليوم . بل هى تعتبر جريمة عسكرية ، وكيف لجندى أن يتساوى على قائده ؟ فلهذا لباس ، ولذاك لباس. ولهذا طعام ، ولذاك طعام . وللضابط مكانة وكرامة؛ وليس للجندى مكانة أو كرامة . وهو يُسَبّ ويُلْعن ويضرب ، ويقسر على خدمة القادة وعيالهم فى بيوتهم وقصورهم ! .

وعلى الرغم من كل هذا لايزال البعض يتساءل : لماذا ننهزم دائماً وكان سَلَفُنَا ينتصر دائماً ؟! ويتطوع الخونة قائلين إن السبب هو الإسلام ! .

﴿ كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾ (الكهف : ٥) .

---

(١) السابق : ٤ / ٩٨ .

(٢) السابق : ٣ / ٤٥٢ .

٩ـ الاستخبارات

ومن البدهيات القتالية : معرفة العدو ، وحجب المعرفة عنه ؛ فكل جيش يقاتل دون معرفة إنما يقاتل فى عماية ، ومن هنا كانت المعرفة بالعدو وأرضه وسلاحه وخططه وأهدافه ولغته، وكل شيء عنه ، من أهم عناصر النصر ؛ وفى المقابل : يعتبر النجاح فى حجب المعرفة عن العدو ضمانة خطيرة للنصر فالمعلومات سلاح فتاك فى الحروب ، وهذه البدهية هى أصل الأجهزة الحديثة المتطورة للمخابرات العسكرية،وهذه هى مهمتها الحقيقية ، وليس مطاردة الأحرار المعارضين للحكام المغتصبين كما حدث فى مصر مثلا فى عهد ناصر الأسوذ !

والسنّة النبوية الشريفة عامرة بالتطبيقات الإسلامية للاستخبارات، وكان من أول سرايا الرسول سرية عبد الله بن جحش إلى نخلة بين الطائف ومكة بقصد مراقبة قريش ومعرفة أخبارها وتحركاتها (١).

وفى يوم بدر بعث عليه الصلاة والسلام بَسْبَس بن الجهنى وَعَدِى بن أبى الزغّباء الجهنى : « يتحسسان له الأخبار عن أبى سفيان ابن حرب ـ قائد قافلة قريش ـ وغيره (٢) ، وبعث على بن أبى طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص ، فى نفر من أصحابه إلى بئر بدر، يلتمسون الخبر له عليه ، فأصابوا راوية لقريش (جالبة الماء

---

(١) تايرخ الطبرى : ٢ / ٤١١ .

(٢) ابن هشام : ١/ ٦١٤ .

لها)، فيها أسلم ـ غلام بنى الحجاج ، وعريض أبو يسار ـ غلام بنى العاص بن سعيد ، فأتوا بهما ، فسألوهما (١) ، وقد نحج « بَسْبَسْ » و« عدى» فى استراق السمع ، فسمعا حارس البئر يخبر فتاتين تسقيان بأن قافلة أبى سفيان كانت آتية إلى ذلك البئر بعد يومين تقريباً (٢) .

وفى غزوة الخندق بعث النبى ﷺ « حذيفة بن اليمان » ليتجسس على المشركين . يقول « حذيفة » إنه عليه السلام قال : «أمن رجل يقوم فينظر لنا مافعَلَ القوم ثم يرجع ؟ أسأل الله تعالى أن يكون رفيقى فى الجنة » فما قام رجل من القوم ، من شدة الخوف ، وشدة الجوع ، وشدة البرد ، فلما لما يقم أحد دعانى رسول الله ﷺ، فلم يكن لى بد من القيام حين دعانى فقال: «ياحذيفة ، اذهب فادخل : فى القوم فانظر ماذا يصنعون ، ولا تُحْدِثنّ شيئاً حتى تأتينا » . قال : فذهبتُ فدخلتُ فى القوم ، والريح وجنود الله تفعل بهم ماتفعل، لاتُقر لهم قدراً ولاناراً. . . (٣) وعاد حذيفة رضى الله عنه سالماً بعد النهوض بتلك المهمة الفدائية ، وأخبر النبى ﷺ بكل مارأى وسمع ؛ ومن ذلك عَزْم أبى سفيان على الرحيل عائداً إلى مكة بالخيبة والخسران ، وبناءً على هذه المعلومات قرر النبى ﷺ شن الحرب على الخونة الغادرين من يهود قريظة الذين طعنوا حلفاءهم المسلمين فى ظهورهم، ونكثوا عهدهم مع النبى ﷺ ، وانضموا إلى حلف الشرك الذى حاصر المدينة ،

---

(١) السابق :١ / ٦١٦ .

(٢) السابق : ١ / ٦١٧

(٣) ابن هشام : ٢ / ٢٣٢ .

وماكان يسع النبى والمسلمون أن يفكروا فى تأديب قريظة والاستعداد لذلك إلا بناء على معلومات مؤكدة برحيل الغزاة المشركين وفك حصارهم على المدينة .

الاستخبارات يوم الحديبية :

وقد خرج النبى ﷺ عام الحديبية فى بضع عشرة مائة من أصحابه ، فلما أتَى ذا الحلْيْفة قلد الهدى وأشعره وأحرم منها بعمرة، وبعث عيناً له من خزاعة ، وسار النبى ﷺ حتى كان بغدير الأشطاط أتاه عينه قال : إن قريشاً جمعوا لك جموعا ، وقد جمعوا لك الأحابيش ، وهم مقاتلوك .

وصادوك عن البيت ومانعوك [1] وبناءً على تلك المعلومات استشار النبى ﷺ صحابته فيما يصنعون ، وقدكان الجاسوس ، أوالعين ، هو بشر بن سفيان الخزاعى [2] .

وتكررت هذه المهمة الفدائية للحصول على المعلومات فى يوم حنين ، فقد أرسل النبى ﷺ « عبد الله بن أبى حدرد » وأمره أن يدخل فى الناس ـ يعنى هوازن ـ فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ، ثم يأتيه بخبرهم . . . فدخل فيهم ، وأقام بينهم حتى سمع وعلم ماقد أجمعوا له من حرب رسول الله ﷺ . . ثم أقبل حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر [3] .

---

(١) فتح البارى : ٧ / ٤٥٣ (٤١٧٨) .   (٢) السابق : ٧ / ٤٥٤ .

(٣) ابن هشام : ٢ / ٤٤٠ . .

وإن قراءة رسائل الفاروق رضى الله عنه إلى سعد بن أبى وقاص بشأن القادسية لتكشف لنا فى جلاء أنهما كانا يملكان معرفة دقيقة واسعة عن العدو : عدداً وعدة وطبيعة إنسانية وجغرافية ، فيقول الفاروق فى إحدى تلك الرسائل : فَسْرِ من « شرَاف » نحو فارس بمن معك من المسلمين ، وتوكل على الله ، واستعن به على أمرك كله ، واعلم فيما لديك أنك تُقْدم على أمة عددهم كثير، وعدتهم فاضلة (زائدة) وبأسهم شديد ، وعلى بلد منيع ـ وإن كان سهلا ـ كؤود ، لبحوره وفيوضه ودآدئه (وظلماته) ؛ ثم ينتهى إلى وصف الموقع المختار لمعسكر الجيش ، وهو القادسية ، فيقول :«إذا انتهيت إلى القادسية ـ والقادسية باب فارس فى الجاهلية ، وهى أجمع تلك الأبواب لمادتهم . . . وهو منزل رغيب خصيب ، دونه قناطر ، وأنهار ممتنعة فتكون مسالحك (كتائبك) على أنقابها ، ويكون الناس بين الحجر والمدر ، على حافات الحجر وحافات المدر . . وحين كان عمر لايجد المعلومات الكافية كان يتوقف عن الكتابة، ويطلب المعلومات التى تمكنه من إرسال النصائح والتعليمات، فيقول رضى الله عنه : « . . فإنه قد منعنى من بعض ما أردتُ الكتابة قلةُ علمى بما هجمتم عليه والذى استقر عليه أمركم فصف لنا منازل المسلمين ، والبلد الذى بينكم وبين المدائن صفة كأنى أنظر إليها ، واجعلنى من أمركم على بَيّنة . . » وقد رد سعد يصف له « القادسية » موقع المعركة الكبرى المنتظرة ، ويخبره بمواقف أهل السواد ؛ ويذكر اسم قائد المجوس ؛ ومايحاول العدو عمله ، وكيف يرد المسلمون عليه .

وبعث سعد بن أبى وقاص عيوناً من المسلمين ليعرفوا أخبار العدو المجوسى ، فرجعوا إليه بالخبر بأن الملك قد ولّى رستم بن الفرخزاد الأرمنى « حربه وأمره بالعسكرة ، فكتب بذلك إلى عمر : « وقد كان هناك بريد نشط بين القيادة الميدانية والقيادة السياسية فى المدينة، بأمرٍ من الفاروق إلى سعد بأن : اكتب إلى فى كل يوم[1] وكان العدو المجوسى يحاول أن يعرف كل شىء عن جيش المسلمين ؛ لكنه إلى جظانب الجواسيس اعتمد على المنجمين والعرافين ومفسرى الأحلام !

فيذكر أن رستم قائد المجوس قد كره الخروج لحرب المسلمين بسب رؤيا رآها فى منامه ، ويذكر أن « يذدجرد » قد أختار رستم لقيادة جيشه بناءً على مشورة قدمها له منجم يدعى « غلام جابان». ولقد يقال : إن هذه الروايات وضعت من قبَل الرواة المسلمين للتشنيع على المجوس بعد هزيمتهم . ولكن ليس ثمة مايمنع من أن يكون المسلمون قد عرفوها بعد النصر ، وماتلاه من مخالطة الفرس ، وعلى كل حال، لا يجب أن نستبعد لجوء المجوس إلى المنجمين والعرافين للحصول على المعرفة ، أو المشورة ، واتخاذ قرارات الحرب واختيار القادة بناءً عليها ، لأن العالم القديم كله كان يفعل ذلك على نطاق واسع ، ولولا عقيدتنا الإسلامية التى تحرم السحر ، وتقضى بقتل الساحر ، وتؤكد أن الله وحده هو علام الغيوب ، لما تردد المسلمون

---

(١) تاريخ الطبرى : ٣ / ٤٩٠ - ٤٩٥ .

فى التماس المعرفة من المنجمين ، بل إن بعض المسلمين فى القرون التالية لعهد الراشدين نسوا تعاليم الإسلام هذه، وأخذوا يجرون وراء الكهان والعرافين !! ومن المؤسف أن عالماً كبيراً هو ابن خلدون قد وضع الكهان والمنجمين والعرافين ضمن المدركين للغيب ، (فى المقدمة السادسة) . وفى الإسلام ، قرآناً وسنة ، لا الأنبياء ، ولا الملائكة ، ولا البشر من أى فئة كانوا ، يعرفون الغيب، وإن تفضل الله سبحانه على أنبيائه فى مسائل معينة ، فَأطْلعهم على بعض الغيوب عن طريق جبريل عليه السلام ، والله تعالى يقول : ﴿ .. **فقل إنما الغيب لله** . ﴾ [يونس: ٢٠] .

هكذا اختلطت المعلومات الحقيقية لدى المجوس بخزعبلات المنجمين ، فى حين ظلت القيادة المسلمة السياسية والعسكرية مُحَصّنة ضد الخرافات الكهنوتية ، ولا تعتمد إلا على المعلومات والأخبار التى تأتى بها العيون والجواسيس المسلمين الموثوق بهم ، وهذه ميزة كبرى فى الاستخبارات الإسلامية ومردها إلى العقيدة الدينية ، وقد رأينا أن عمر اختار سعداً للقيادة بعد مشورة كبار الصحابة ؛ وعلى النقيض من ذلك اختار « يزدجرد » قائد رستم بعد مشورة المنجم ! وكان رستم متشائماً ، لايريد الحرب ، بسبب كلام سمعه – من منجم – وإذا كان « ريجان » رئيس الولايات المتحدة الأسبق قد لجأ إلى المنجمين ، واتخذ بعض القرارات بناءً على كلامهم ، كما أذيع مؤخراً ، فليس لنا أن نستبعد لجوء رستم لهم منذ حوالى ١٤٠٠سنة!! .

ومع الحرص على المعلومات عن العدو كان الرسول ﷺ يكتم الأسرار الحربية ، فإذا خرج للقتال فى ناحية ورّى أنه يريد ناحية

أخرى ، لعلمه بأن ثمة عيونا ترقب تحركاته ، وتبلغها لأعداء الإسلام من المشركين ، فعن كعب بن مالك رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة إلا ورَّى بغيرها .. (١) .

وفى فتح مكة حرص النبى ﷺ على كتمان الأخبار حتى إن عائشة كانت تجهز النبى ﷺ للخروج دون علم أبيها نفسه ! ولما أنكر أبو بكر بعض شأنها ، موهت عليه حتى لاتخبره الخبر ، وأمر النبى ﷺ - بالطرق ، فحبست فعُمى على أهل مكة ، لايأتيهم خبر ، وقصة اكتشاف الرسالة التجسسية التى بعث بها حاطب بن أبى بلتعة مع امرأة إلى قريش يفشى فيها سر الاستعدادات لفتح مكة قصة معروفة .

ولولا الحرص الشديد للمسلمين على أن لاتتسرب أخبارهم إلى العدو لما أمكن اكتشاف تلك الرسالة ، ومن ذلك نستطيع أن نستنتج أنه كان هناك نظام دقيق يشرف على الطرق ويفتش عن الجواسيس المحتملين ، وإلا فكيف انكشف أمر حاطب وأمر تلك المرأة الجاسوسة ؟ ! وهكذا بلغ النبى ﷺ - ومعه ١٠,٠٠٠ من المسلمين « مر الظهران » وقد عميت الأخبارعن قريش فلا يأتيهم خبر عن رسول الله ﷺ ، ولا يدرون ماهو فاعل » (٢).

وفى حروب الردة حذر الصديق رضى الله عنه قادته ، وأمرهم ألا يُدخلوا فى جيوشهم أحداً لايعرفونه : « لايكونوا عيوناً ، ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم » (٣) .

---

(١) أخرجه البخارى .
(٢) تاريخ الطبرى : ٣ / ٥٠ ، أخبار سنة ٨ هـ .
(٣) السابق : ٣ / ٢٥٢ .

وكان المسلمون يحرصون كل الحرص على حجب أخبارهم وتحركاتهم عن العدو ، ومن أطرف الأخبار فى مطاردة الجواسيس ماروى عن زُهرة بن الحوية، المقاتل المسلم العملاق ، فى معركة القادسية ، حين رأت طلائع الجيش المسلم فى بروج« العذيب » ناساً، فلما دنوا منها خرج رجل فارسى يركض ، ولما دخلوا البروج لم يجدوا أحداً ، فأدركوا أن ذلك الرجل الواحد كان يموه عليهم ويظهر لهم فى كل مرة من مكان مختلف ليوهمهم بوجود عدد من المجوس، فطاردوه حتى يقبضوا عليه قبل أن يبلّغ قيادته بما رأى؛ ولكنهم عجزوا عن الإمساك به ! ولكن زهرة أصر على مطاردته ، خوفا من تسرب خبر المسلمين ؛ وقد لحق به وقتله ، وَوَصَفَ المسلمون ذلك الفارسى بأنه كان شجاعاً ، عليما بالحرب ، و: « لم ير عَيْنُ قوم قطّ أثبت ولا أربط جأشاً من ذلك الفارسى » (١) .

وفى سبيل المعلومات عن العدو تُروى أخبار ومغامرات قام بها المجاهدون المسلمون ، تفوق الخيال ، ومما لاشك فيه أنها تستحق المخاطرة ؛ فهى عنصر مهم جداً فى تحقيق النصر ؛ ولذلك يتحتم شرعاً أن يكون لدينا أجهزة استخبارات قادرة على كشف أسرار العدو الصهيونى ؛ كما أن إرخاء العنان لليهود والأمريكيين والأوربيين فى المجالات العلمية والاقتصادية ، باسم التعاون ، وباسم الخبرة الفنية، وهم فى الأغلب جواسيس ، يشكل جريمة دينية وخيانة وطنية ؛ فيجب أن نحذرهم أشد الحذر ، فهل نحن فاعلون ؟!

---

(١) السابق : ٣ / ٣٩٣ .

١٠ـ العدد والوحدة

ما قيمة الكثرة ، أو الكم ، أو عدد الجند ، كعامل إيجابى فى تحقيق النصر ؟ .

قد يجيب البعض قائلا : إن السلاح النووى الحديث أبطل العدد كعامل إيجابى فى تحقيق النصر وهاهى إسرائيل تختال بقوتها النووية فى المنطقة،وتهدد العرب،على الرغم من قلة عدد جيشها . فمواجهتها لاتحتاج إلى جيوش جرارة ، وإنما إلى نخبة من العلماء ، والخبراء والمهندسين ، وأموال ومعامل ، لإنتاج السلاح النووى . عندئذ يمكن أن يقال إن السلاح النووى قد أبطل أو « حيَّد » وأن التفوق سوف يكون فى الأسلحة « التقليدية » من الطائرات والدبابات والمدافع والصواريخ ، وفى الإمكانيات البشرية الإدارية والقتالية ، ومن ورائها القدرات الاقتصادية والصناعية ، وفى مثل هذه الظروف لايمكن الزعم بأن كثرة العدد لاتمثل أية ميزة قتالية ؛ وخصوصاً إذا تقاربت المستويات والإمكانات فيما يتصل بالعوامل الأخرى ، وأظن أن هذا هوالسبب ، فى احتفاظ الشرق والغرب بقوات تقليدية هائلة؛ فهى المرشحة لخوض المعارك إذا اشتعلت الحرب ! وهنا لابد أن يلعب عدد الجيش ، وعدد الأمة التى يمثلها ، دوره المؤثر فى إحراز النصر ، والدول أو الدويلات الصغيرة لايسعها ، فى هذه الظروف ، سوى الانضواء تحت مظلة دولة كبرى ، أو حلف عسكرى ، تدور فى فلكه ، وهذا هو ماأثبتته حرب الخليج الثانية بما لايدع مجالاً للشك ، وعدونا الصهيونى ينتمى إلى أمريكا والغرب ، بل هو قاعدة متقدمة له فى قلب العالم العربى؛

وروسيا تبيعه الرجال تحت مسمى حق الهجرة لليهود الروس ! وفى الوقت نفسه يتم إحباط كل محاولة لاتحاد العرب والمسلمين ، ليظلوا الأضعف والأقل ، وتظل الفرص متاحة لإشعال الحروب بين حكامهم العلمانيين ، وبذلك تستطيع إسرائيل أن تسيطر وأن تُحكم قبضتها على فلسطين وعلى المسجد الأقصى ، ويظل أمل إقامة دولة صهيونية من النيل إلى الفرات قائما ، ويظل أمل المسلمين فى وحدة أو اتحاد أو ارتباط يجمع قواهم السياسية والاقتصادية والعسكرية مجرد وهم أو سراب أو حلم يقظة ! فإن مليار مسلم ، قوة إنسانية واقتصادية وعسكرية رهيبة ولذلك يستولى الرعب على أفئدة الأمريكيين والأوربيين والصهاينة لمجرد ذكر الوحدة العربية أو الإسلامية ؛ وهم لذلك على استعداد لبذل مليارات الدولارات لإحباط أية محاولة للوحدة ، وقد ذعرت إسرائيل سنة ١٩٨٩م لمجرد خبر يقول إن السلاح الجوى العراقى والسلاح الجوى الأردنى سوف يشكلان سربا مقاتلا مشتركا ! وجرت الاتصالات عبر البحار فوراً وبكثافة لوقف إجراءات هذا التشكيل الجوى المشترك . فليتخيل القارئ ماذا يمكن أن يحدث - مثلا !! - لو أن جيوش الدول العربية قد أدمجت فى جيش واحد ؟! وكم تدفع أمريكا لإيقاف ذلك الدمج؟!

وإذا أضيف عامل العدد (بهذا المعنى « الوحدوى » إلى العوامل الأخرى الدينية والمعنوية والمادية) إلى قوتنا فإن عهداً جديداً من الاستقلال والكرامة والعزة فلا بد أن يبدأ فى عالمنا الإسلامى ؛ ولابد

أن يولى عهد التبعية والضعف والمذلة .

والقرآن الكريم يقرر هذه الحقائق بوضوح ، فهو يوجب الاجتماع والوحدة ، وينهى عن الفرقة والتشرذم والتنازع . فيقول جل علاه: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ (آل عمران: ١٠٣) ؛ ويقول : ﴿ ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ (الأنعام: ١٥٣)؛ ويقول : ﴿ ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾ (الأنفال : ٤٦) . والنبى ﷺ يقول : « من أتاكم وأمركم جميع — على رجل واحد — يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم، فاقتلوه»[١] ولقد تفرق المسلمون وتنازعوا وتقاتلوا ، فانقلبت الكثرة إلى نقمة !

يوم بدر كان النبى ﷺ مهتماً بمعرفة عدد المشركين ؛ لأن العدد عامل لاينكر إذا تساوت العوامل الأخرى ، أو تقاربت ، وكان مهتماً أيضا « بالكيف » فيروى أنه عليه السلام سأل غلامين مشركين أسرهما الصحابة فقال :« كم القوم ؟ » قالا : كثير . قال : « ماعدتهم ؟ » قالا : لاندرى . قال : « كم ينحرون كل يوم ؟ » قالا : يوماً تسعاً ويوماً عشراً . فقال رسول الله ﷺ : القوم فيما بين التسع مئة والألف . » ثم سألهما سؤالا يتعلق بنوعية المقاتلين ؛ فقال : « فمن فيهم من أشراف قريش ؟ » قالا : عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة[٢].

---

(١) رواه مسلم .

(٢) سيرة ابن هشام : ١ / ٦١٧ مسلم .

وكان هذا بمثابة خلل فى عنصر العدد لصالح المشركين ، ولم يكن يعوضه سوى العوامل الدينية والمعنوية ؛ لأن الجميع كانوا عربا؛ ولافرق بين الفريقين فى المستوى البدنى والقتالى ،والقرآن الكريم ذكر عوامل : الإيمان بالله وما يجلبه من توفيق الله وعونه ، والصبر - الفضيلة القتالية الأساسية فى العقيدة الإسلامية - ،والفقه أو العلم ، والاتحاد ، بوصفها العوامل الكفيلة بتعويض الخلل فى العدد . وقد انتصرت القلة المؤمنة نصراً عظيماً . ويقول جل ثناؤه : ﴿ **يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال ، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لايفقهون . الآن خَفَّفَ الله عنكم وعَلَمَ أن فيكم ضَعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين . . .** ﴾ (الأنفال: ٦٥ ، ٦٦) ويقول الشيخ رشيد رضا رحمه الله فى « المنار » إن : « . . الآية تدل على أن من شأن المؤمنين أن يكونوا أعلم من الكافرين وأَفْقه بكل علم وفن يتعلق بحياة البشر وارتقاء الأمم » . ثم يصوغ قانون الغَلب فيقول :« إن سُنَّة الله تعالى فى الغلب أن يكون للصابرين على غير الصابرين ، وكذا على مَنْ هم أقل منهم صبراً ؛ وفى هذا تحذير للمؤمنين من الغرور بدينهم ، لئلا يظنوا أن الإيمان وحده يقتضى النصر والغلب ، وإن لم يقترن بصفاته اللازمة لكماله ، ومن أعظمها : الصبر ، والعلم بحقائق الأمور ، وسنن الله تعالى فى الخلق ــ المعبرعنه بالفقه ــ [1] ولقد يرفض البعض إدخال « كل علم وفن فى الفقه »

---

(١) المنار : ١ / ٦٦ ، ومابعدها . ط . دار الشعب .

ولكن هذا الرفض لايمكن أن ينتقص من وجوب التفوق فى العلوم والفنون بحكم القرآن ؛ لأن هذه العلوم والفنون هى قوام القوة اليوم؛ والقرآن يأمر المسلمين بإعداد مايستطيعون من القوة . وهكذا نجد لتفسير الشيخ رشيد رضا سنداً فى آية الإعداد ، وهى آية محكمة لاتقبل أية تأويلات .

ولكن « الكيف » فى العقيدة القتالية لايقتصر على الصبر والفقه، (أو العلم) والاتحاد ، وإنما يضم العوامل الدينية كلها من إيمان بالله ورسوله ، وطاعة ، وقتال فى سبيله وحده ، وشورى حربية وسياسية ، ووفاء بالعهد ، واجتناب للعدوان ، وتعبئة معنوية، ومادية وتسليح ، وجدارة فى القيادة واستخبارات ؛ هذا فضلاً عن إعداد المجتمع المسلم المجاهد ، يمكن أن يفرز هذا الجيش المؤمن المنتصر . وإذا كان رشيد رضا لم يذكر كل العوامل ، فذلك لأنه لم يجر دراسة استقصائية لقانون النصر، بل كان يفسر آيات معينة ذَكَرْت الصبر والفقه . وقد يُلاحظ القارئ أنه ــ رحمه الله ــ قد قال : «ومن أعظمها الصبر والعلم . . . » ! وهى عبارة واضحة فى دلالتها على أن الصبر والعلم عاملان إيجابيان فى تحقيق النصر إلى جانب العوامل الدينية والمعنوية الأخرى ، وإلى جانب العوامل المادية أيضاً .

والتاريخ الإسلامى القديم والحديث يشهد على أن الكيف كثيراً ماعَوَّض الخلل فى الكم أو العدد . ففى يوم بدر كان عدد المسلمين ١٣٤ رجلاً وعدد المشركين ألفاً ؛ وكان مع المسلمين ثلاثة أفراس ،

ومع عدوهم مئة [1] واستشهد من المسلمين ١٤ رجلاً ؛ وقتل من المشركين سبعون ؛ وأسر سبعون . ولم يؤسر أحد من المسلمين . وهكذا عَوَّض الله تعالى النقص الجسيم فى الرجال والخيل ، فانتصرت القلة المؤمنة على الكثرة المشركة ، وأنزل الله تعالى ملائكته ليثبتوا الذين آمنوا . وألْقَى سبحانه وتعالى الرعب فى قلوب المشركين؛ وقد جاء فى قصيدة معاوية بن زهير أن المشركين رأوا القلة المؤمنة كأنها فيضان بحر! .

ويوم اليرموك العظيم كانت نسبة المسلمين إلى الروم (١ : ٥) ؛ كان عدد المسلمين ٤٦,٠٠٠ (ستة وأربعين ألفاً) ، والروم ٢٤٠,٠٠٠ (مئتين وأربعين ألفاً) أما نسبة القتلى فكانت ٢,٥ إلى ١٠٠ !!! فقُتل من الروم ١٢٠,٠٠٠(مئة وعشرون ألفاً) واستشهد من المسلمين ٣٠٠٠ (ثلاثة آلاف فقط .) وكان التسليح متكافئاً . فذلك النصر المذهل أحرزه المسلمون بفضل العوامل الدينية والمعنوية[2]. ومثل هذا الإنجاز العسكرى العظيم تكرر فى القتال ضد المجوس ، لأن عوامل النصر توفرت كلها ؛ باستثناء عنصرى العدد (أو الكم)و التسليح، وقد أمكن تعويض الخلل فيهما عن طريق العوامل الدينية والمعنوية ، فكان من المحتم أن تنبثق الظاهرة طبقاً لقانون النصر ، ولذلك نقول إن تكرار تلك الانتصارات ممكن إذا نحن وفرنا العوامل الدينية ؛ حتى لوكانت العوامل المادية غير مكتملة بمستوى اكتمالها

---

(١) ابن هشام : ١ / ٦٦ .

(٢) تاريخ الطبرى : ٣ / ٣٩٣ .

لدى العدو وشريطة ألا يبلغ حدود الجسامة . والأفضل والأوجب شرعاً أن نحاول التفوق فى العناصر المادية على أعدائنا .

ففى معركة نهاوند سنة ١٩ هـ كان عدد المجوس ١٥٠,٠٠٠ (مئة وخمسين ألفاً) وعدد المسلمين ٣٠,٠٠٠ (ثلاثين ألفاً) ،أى النسبة كانت (٥ : ١) . وأما القتلى من المجوس فكانوا ١٠٠,٠٠٠ (مئة ألف) ، أى ثلثى جيشهم . وهذا يعنى أن كل مسلم قَتَل ثلاثة مجوس فى المتوسط [1].

وفى العصر الحديث تواجهنا ظواهر عسكرية مذهلة ، فالأمير عبد الكريم الخطابى رحمه الله يبيد عشرين ألفاً من الإسبان المعتدين سنة ١٩٢١م ؛مع اختلال فاحش لصالح الإسبان فى العدد والعدة ، وكل العوامل المادية . ومعنى هذا أن الإيمان بالله ورسوله ، وماجلبه من روح الفداء والتضحية وطلب الشهادة ، هو العامل الأساسى فى تلك الانتصارات المذهلة . والفدائيون اللبنانيون المسلمون استطاعوا أن يقسروا قوات البحرية الأمريكية على الهرب من بلادهم باستعمال السيارات الملغومة التى قادها أفراد من طلاب الشهادة . ويقف الشباب الفلسطينى المؤمن اليوم مجرداً من كل عوامل النصر المادية فى مواجهة العدو الصهيونى المدجج بالسلاح الأمريكى، بلا خوف ، ليرجم جنوده بالحجارة، ويضع الدولة الصهيونية كلها فى مأزق رهيب لا تعرف له مخرجاً . وقد كانت معركة العبور الرائعة فى العاشر من

(١) السابق : ٤ / ١٣٦ .

رمضان سنة ١٣٩٣هـ ، أكتوبر سنة ١٩٧٣ م مثالاً هائلاً لأثر العوامل الدينية، مع التقارب فى العوامل المادية ، فى تحقيق النصر الكبير . ولولا تخاذل القيادة السياسية المصرية أمام التدخل الأمريكى ، لتحقق النصر كاملاً غير منقوص . وفى أفغانستان استطاع المجاهدون دحر أفظع قوة عسكرية احتلالية ، لاتعرف ديناً ، ولا قانوناً ، ولا أخلاقاً؛ ولولا فُرقة القادة وتنازعهم لما فشلوا فى تحقيق النصر الحاسم وإقامة الدولة الإسلامية .

هذه الحقائق فى التاريخ القديم والحديث تعلمنا أن العوامل الدينية عوامل حاسمة فى إحراز النصر ، ولا مفر من إنشاء المجتمع المسلم الذى يحققها وينميها فى عُدة الجيوش المسلمة . وقد تُعَوّض الخلل فى العتاد ؛ و« الكم » المطلوب بإلحاح هو الكم الذى يعنى تجميع الشعوب المسلمة فى قوة واحدة ، كحلف سياسى وعسكرى واقتصادى واحد ، وخطوة أولى لإنشاء الدولة الإسلامية الواحدة والجيش المسلم الواحد ، القادر على امتلاك السلاح النووى والكيميائى والجرثومى ، ولن يتحقق التوحيد والتكتيل إلا على أساس الأخذ الشامل للإسلام ؛فهذا هو الذى يوحد الفكر والتشريع والنظم والأخلاق ، والعلمانية هى العدو اللدود لهذا الاتجاه ، فيتحتم التخلص منها لنصل إلى تحقيق عنصر « الكم » بهذا المعنى الوحدوى العظيم .

١١ـ الإمداد بالملائكة

فى العقيدة الإسلامية يمد الله تعالى المؤمنين الذين يقاتلون فى سبيله بالملائكة .

ونحن المسلمين نؤمن بهذا المدد الإلهى إيماناً يقينياً ، لأن القرآن الكريم أكده فى أكثر من آية ، فهو عامل حاسم من عوامل النصر .

قال تعالى : ﴿ **إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وماجعله الله إلا بُشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم .** ﴾ (الأنفال : ٩ : ١٠) وقال أيضاً : ﴿ **إذ يوحى ربُّك إلى الملائكة إنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان** ﴾ (السورة نفسها : ١٢) .

وهنا سؤال مهم هو : هل الأمر الوارد فى الآية (١٢) من سورة الأنفال بالضرب فوق الأعناق موجه للملائكة أم المؤمنين ؟ وبعبارة أخرى : هل شارك الملائكة فى القتال أم اقتصر دورهم على تثبيت المؤمنين وتطمين قلوبهم ؟

أجاب بعض المفسرين بأن الملائكة قاتلَت الكفار مع البدريين [(١)] وقال صاحب الظلال : « إن الله أمر الملائكة أن يضربوا فوق

---

(١) انظر : تفسير القرطبى ص ١٤٣٥، ١٤٣٦ ، تفسير الآية ١٢٤ من سورة آل عمران . ط دار الشعب .

الأعناق وأن يضربوا منهم كل بنان ، ففعلوا ذلك بكيفية لانعلمها»[1]
وأجاب آخرون بأن الملائكة : « كان يدْعون ويسبْحون، ويكثّرون الذين يقاتلون يومئذ ، فعلى هذا لم تقاتل الملائكة يوم بدر وإنما حضروا للدعاء والتثبيت » [2] .

والتفسير الأول تواجهه بعض الصعوبات ، فإن الملائكة إذا أُمروا بالضرب فوق الأعناق وضرب « كل » بنان ، فإنهم لابد أن يفعلوا مايؤمرون ، لأنهم ﴿ **لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾ (التحريم : ٦) فكل ملاك من الألف لابد أن يضرب فوق الأعناق ، وأن يضرب كلٌّ واحد منهم كل بنان ، وكان من المتحتم - على هذا - أن يقتل كلٌّ المشركين ، بأفعال الملائكة التى لانعرف كيفيتها ، لا بأيدى المسلمين الذين قاتلوا فى ذلك اليوم ، وهذا يتعارض مع مانعرفه عن عدد القتلى والأسرى من المشركين ، ومجموعهم حوالى (١٤٠) رجلاً ؛ وقد ظل سائرهم على قيد الحياة ، وكانوا حوالى (٨٦٠) رجلاً .

ويضاف إلى هذا صعوبة أخرى هى أن ابن هشام وغيره يذكرون اسم كل قتيل من المشركين ويذكرون أيضاً اسم المسلم الذى قتله . ومن ذلك أن حنظلة بن أبى سفيان قتله زيد بن حارثة ؛ والحارث بن الحضرمى قتله عمار بن ياسر ؛ وعمار بن الحضرمى قتله النعمان بن عصر ؛ وعمير بن أبى عمير قتله سالم مولى أبى حذيفة ؛ وعبيدة بن

---

(١) فى ظلال القرآن : ٣ / ١٤٨٥ - ١٤٨٧ . ط دار الشروق .
(٢) القرطبى : ص ١٤٣٧ .

سعيد قتله الزبير بن العوام ؛ والعاص بن سعيد قتله على بن أبى طالب ؛ وعتبة بن ربيعة قتله عبيدة بن الحارث ؛ وشيبة بن ربيعة قتله حمزة بن عبد المطلب ؛ وهكذا تُذكر أسماء القتلى من المشركين وأسماء قاتليهم من المسلمين البدريين [(١)].

فإذا أخذنا بالتفسير الأول الذى يرى أن الأمر بالضرب فوق الأعناق وضرب « كل » بنان موجَّه إلى الملائكة لا إلى المجاهدين تحتم علينا أن نرد هذه الأخبار والروايات عن عدد القتلى وعن قاتليهم وذلك ولا شك يزلزل الثقة فى السيرة ، ويغير معالم ذلك اليوم الخالد، يوم بدر ، ونحن لسنا فى حاجة إلى ذلك إذا أخذنا بالتفسير الثانى الذى يجعل التثبيت والدعاء والتطمين من شأن الملائكة ويجعل القتال من شأن المجاهدين من البشر ، والنصر يوم بدر تحقق بفعل العوامل الدينية والمعنوية والمادية كلها بالإضافة إلى دور الملائكة الكرام، والصحابة المجاهدون من المهاجرين والأنصار فى ذلك اليوم لهم ثواب الجهاد ، ولهم شرف النصر ،و لهم الحق فى الغنائم ، لأنهم قاتلوا بحق ، وقد سمعوا جميعاً قَسَمَ رسول الله ﷺ : «والذى نفسى بيده لايقاتلهم اليوم رجل فَيُقْتَل صابراً محتسباً ، مقبلاً غير مدبر ، إلا أَدْخَلَه الله الجنة » [(٢)] وقد كان لكلماته الشريفة فعلُها الكبير فى نفوس المؤمنين ، فَأَقبلوا يجاهدون ببسالة منقطعة النظير ؛ وصار البدريون مثلاً أعلى لكل مقاتل فى سبيل الله .

---

(١) ابن هشام : ١/ ٧٠٨ ، ٧٠٩ .

(٢) ابن هشام : ١ / ٦٢٧ .

والسؤال المهم الثانى :هو: هل الإمداد بالملائكة غير ممكن اليوم ؟ هل هو خاص بجيش النبى ﷺ ، أم هو مشروط بطاعة الله ورسوله والصبر على الجهاد فى سبيله ، وأنه ممكن فى كل عصر إذا تحققت شروطه الدينية ؟

قال تعالى : ﴿ **بلى إن تصبروا وتتقوا ، و يأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مُسَوَّمين** ﴾ (آل عمران : ١٢٥) وبناءً على هذه الآية الكريمة قال بعض المفسرين إن الإمداد بالملائكة مشروط بالصبر والتقوى - (والتقوى تشمل معظم العوامل الدينية) - وفى أى عصر إن يتحقق الشرط يتحقق الجواب ، وهو الإمداد بالملائكة ، وفى هذا قال الحسن : فهؤلاء الخمسة آلاف رِدْء للمؤمنين إلى يوم القيامة [١] . وقال عكرمة والضحاك : « إنما وعد الله المؤمنين يوم بدر إن صبروا على طاعته واتقوا محارمه ، أن يمدَّهم أيضاً فى حروبهم كلها » وأنهم لما لم يصبروا يوم أحد ، وتركوا المواقع طلباً للغنائم ، وعصوا أمر نبيهم ، هُزموا وَلَوْ أُمِدّوا لما هُزموا [٢] فالإمداد مشروط بشروط وهو يقع حين يتحقق فى كل عصر ؛ ويُمْنَع إذا لم تتحقق فى أى عصر أيضاً ، بما فى ذلك عصر النبى ﷺ ؛ هذا هو قانون النصر وسنته الإلهية الماضية إلى يوم القيامة .

---

(١) القرطبى : ١٤٣٦ .

(٢) القرطبى : ١٤٣٧

وقد يعترض على هذا التفسير الذى أخذنا به استنادا إلى تفسير خاص لقول الله تعالى : ﴿ **فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميتَ إذْ رميتَ ولكن الله رَمى وَلِيُبْلِي المؤمنين منه بلاءً حسناً إن الله سميع عليم** ﴾ (الأنفال : ١٧) فقد قيل فى تفسيرها إنها تعنى أن الله قتلهم بالملائكة الذين أَمَدَّ بهم المؤمنين يوم بدر [١] لكن التفسير الأرجح يقول : إن أصحاب النبى ﷺ لما صدروا عن بدر ذَكَرَ كل واحد منهم مافعل : قتلت كذا ؛ فعلت كذا . فجاء من ذلك تفاخر ونحو ذلك ، فنزلت الآية إعلاماً بأن الله تعالى هو المميت والمقدر لجميع الأشياء ، وأن العبد إنما يشارك بتكسبه وقصده ـ

فقيل : المعنى فلم تقتلوهم ، ولكن الله قتلهم بسوقهم إليكم حتى أمكنكم منهم .

وقيل فى قوله تعالى : ﴿ **ومارميتَ إذْ رميتَ ولكن الله رمى** ﴾ عدة آراء؛ وأقربها إلى التفسير الذى رجحناه يقول إن معنى : ﴿ **ولكن الله رمى** ﴾ أى أعانك وأَظْفَرَكَ والعرب تقول: رَمَى اللهُ لك، أى أعانك وأظفرك وصنع لك حكى هذا أبو عبيدة فى كتاب المجاز [٢] فالمؤمنون هم الذين قاتلوا ، وهم الذين قتلوا المشركين ، ولكن بإرادة الله وعونه ، وتثبيت الملائكة ودعائهم؛ فلا مجال للفخر ، وإنما هى مناسبة لشكر الله تعالى وحمده والثناء عليه ، وتسبيحه : ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح . ورأيتَ الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً فسبح**

---

(١) السابق : ٢٨٢ .

(٢) السابق : ٢٨٢١ ، ٢٨٢٢ .

بحمد ربك واستغفره إنه كان تَوَّاباً ﴾ ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

صفوة القول إذاً ، بناء على هذه الدراسة كلها ، إن النصر ظاهرة من الظواهر الاجتماعية ، تخضع لسنة إلهية لاتتغير ولاتتحول؛ وإن الأمة المسلمة تستطيع أن تنتصر على المعتدين إذا هى وفرت عوامل النصر — وهى تستطيع أن توفر هذه العوامل . وأخطرعوامل النصر هى العوامل الدينية من إيمان بالله تعالى وطاعة له سبحانه ، واحتساب للقتال فى سبيله وحده ؛ وهذا لايمكن أن يتحقق إلا بتطبيق الإسلام فى كماله وشموله ، دون اجتزاء أو اقتطاع، فى العقيدة والسياسة ، والعبادة والاقتصاد والأخلاق والحرب . بهذا ننشئ المجتمع المجاهد ، الذى يستطيع وحده أن يفرخ الجيش المسلم المجاهد ، والعامل الثانى الخطير ، المهم ،هو السعى إلى توحيد الأمة المسلمة ، على أن تكون الدولة المسلمة الواحدة هى الهدف الأقصى لهذا المسعى ، ولعل التنسيق السياسى والعسكرى والتعاون الفنى والاقتصادى هو البداية الممكنة ، يلى ذلك فى الأهمية الالتزام بالشورى فى السياسة والحرب، ونبذ الدكتاتورية بكل أشكالها بوصفها عامل هزيمة ، وليس مجرد نظام سياسى متخلف .

والعوامل المادية لاغناء عنها أَلْبَتَّة ، ومهما اكتملت لدينا العوامل الدينية ، بل هى من العوامل الدينية ، لأن إعدادها بأقصى مايسع الأمة واجب دينى يفرضه كتاب الله تعالى . ويتحتم أن تتعلم الجيوش المسلمة قانون النصر فى العقيدة القتالية الإسلامية ، وأن تغير فكرها وخططها ، وعقيدتها القتالية العلمانية وتستبدل بها العقيدة الإسلامية

وتنفذها ، وتلتزم بها ؛ كذلك يجب أن تراعى معايير الجدارة فى الترقيات للقيادات . فإذا نحن أَحْدَثْنَا هذه التغييرات الواسعة ، فى المجتمع - أبى الجيش وأُمّه - وفى الجيش نفسه ، كان لنا أن نأمل فى أن يمدنا الله تعالى بالملائكة فى حربنا ضد المعتدين .

وفى كلمة واحدة : يجب إحلال الإسلام محل العلمانية فى حياتنا كلها ، فالعلمانية هى طريق الهزائم ؛ والإسلام هو طريق النصر، وعلينا أن نعرف هذه الحقيقة الكبرى وأن نخطط ونتحرك على أساسها ؛ وعندئذ نكون على وعى بالطريق وبالغاية القصوى **﴿وَيَومئذ يَفْرحُ المؤمنون بِنَصر الله ينصرُ مَن يشاءُ وهو العزيز الرحيم ﴾** (الروم : ٤ ، ٥) .

الفهرس

الموضوع | الصفحة

رقم الإيداع : ١٩٩٤/٥٩٧٥م

I.S.B.N:977 - 15 -0130 - 5

مطابع الوفاء - المنصورة

شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت:٣٤٢٧٧٢١/٣٥٦٢٢٠/٣٥٦٢٣٠

ص.ب: ٢٣٠ فاكس ٣٥٩٧٧٨